http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعني : ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوَّل إلى نجَّار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من « الموصل » إلى البحر؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذي سوف يأتي ليحمل السفينة .

ونحن نلحظ في قول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَيَصْنَعُ الفلك } [هود : 38] .

تنفيذ الأمر الذي صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

{ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ }

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)

ونلحظ في قول الحق سبحانه : { فَسَوْفَ } { تَعْلَمُونَ } أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً؛ لأن أي حدث كما نعلم له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضي أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف « السين » كأن نقول : « سيعلمون » وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتي كلمة « سوف » .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة؛ ولذلك جاء ب « سوف » لتدل على أوسع مَدًى زمنيّ .

وما الذي سوف يعلمونه؟ إن العذاب ، أيأتي لنوح ومن معه أم يأتي للذين كفروا من ملأ نوح .
لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :
{ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } [هود : 39] .
وفي هذا القول ما يؤكِّد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم؛ لأنهم كفروا وسَخِروا وقالوا :
{ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [هود : 32] .
وقول الحق سبحانه :
{ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } هود : 39] .
نجد فيه كلمة { يَحِلُّ } وهي ضِدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بالمكان ، أي : نزلَ ليقيم به ، والضِّدُّ هو الرحيل أو الترحال .
وقول الحق سبحانه : { مُّقِيمٌ } يعني أن العذاب الذي سيحِلُّ بهم عذاب دائم .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور }

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40)

وكلمة { حتى } تدل على الغاية وكلمة { أَمْرُنَا } تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومَنْ آمن معه وكانوا قِلَّة قليلة .
إذن : ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :
{ واصنع الفلك } [هود : 37] .
وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :
{ وَفَارَ التنور } [هود : 40] .
ومعنى كلمة { فَارَ } أي : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .
فالماء يحتوي على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلي الماء نرى فقاقيع الهواء وهي تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء منثوراً خارج إناء الغليان .
و « التنور » هو المكان الذي تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .
وكانت العلامة هي خروج الماء من غير مَظَانِّه وهو التنور .
واختلف العلماء في تفسير كلمة « التنور » فمنهم من قال : إن التنور هو المكان الذي كان آدم

عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذي كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضرُّ ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعَلَى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

{ احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين } [هود : 40] .

تعني : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة { كُلٍّ } المنونة وتفيد التعميم أي : احمل في السفينة من كل شيء ، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفطنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

{ زَوْجَيْنِ اثنين } [هود : 40] .

تدل على أن كلمة « زَوْجٍ » هي مفرد؛ بدليل قول الحق سبحانه :

{ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } [النساء : 1] .

إذن : كلمة « زَوْجٍ » تعني مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة « الزوج » على أنها اثنان؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى .

{ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين }

[الأنعام : 143144] .

وحين نجمع العدد سنجده ثمانية ، ولو كانت كلمة « زوج » تطلق على الاثنين لصار العدد في تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضّح القرآن الكريم أن كلمة « زوج » مفرد في قول الحق سبحانه :

{ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى } [القيامة : 3739] .

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

{ احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ } [هود : 40] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقي الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا }

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41)

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

{ وَفَارَ التنور } [هود : 40]

وحَمَلَ نوح عليه السلام في الفُلْك بأمر من الله تعالى من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

{ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا } [هود : 41] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام؛ لأنه أضاف :

{ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [هود : 41] .

والركوب يقتضي أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه . والاستعلاء يقتضي أن يكون الشيء المُستعلَى عليه في خدمة المُستعلِي ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِي .

ولكن الله تعالى يقول هنا :

{ اركبوا فِيهَا } [هود : 41] .

ولم يقل : « اركبوا عليها » .

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك؛ ليعطينا لقطة عن طريق صنع السفينة ، فقد صنعها نوح عليه السلام بوحي من الله تعالى على أفضل نظام في البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم إذن لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .

وقول الحق سبحانه :

{ بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا } [هود : 41] .

يُبيّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجي من الغرق؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله

الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً؛ ليتيح الرُّسُوَّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان .
وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه .
وقول نوح عليه السلام :
{ بِسْمِ اللهِ مجراها وَمُرْسَاهَا } [هود : 41] .
يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى .
ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى : نجد القاضي يقول مفتتحاً الحكم : « باسم الدستور والقانون » أي : أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .
ونوح عليه السلام يقول :
{ بِسْمِ اللهِ مجراها وَمُرْسَاهَا } [هود : 41]
لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة .
ولذلك يقال : « كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبْتر » .
لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليّا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليّا فهو يحتاج لفكر ورويَّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم؟
إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول : « باسم القوي القادر » ولكي تحصل على علم؛ تقول : « باسم العليم » ، وتريد الغني؛ فتقول : « باسم الغنيّ » وحين تحتاج إلى الحلم تقول : « باسم الحليم » ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة؛ تقول : « باسم القهار » .

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذي يُغْنِي عن كل ذلك أن تنادي ربك وتتبرَّك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوي كل صفات الكمال والجلال .
وإياك أن تتهيَّب أو تستحي ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .
وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :
{ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [هود : 41] .
إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبِّقوا كغالبية البشر كل التكاليف؛ لأنهم ليسوا ملائكة .
لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي الميزة في قول : « بسم الله الرحمن الرحيم » .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصفُ السفينة وزُكَّابها : { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال }

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42)

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيَّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادي نوح ابنه :
{ ونادى نُوحٌ ابنه وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يابني اركب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين } [نوح : 42] .
ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه .
وفي هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن في مُخالفة مراد أبيه : { قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء }

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .
وهكذا فرَّق الموج بين نوح وابنه؛ وغرق الابن .
وأراد الحق سبحانه أن يُنهي الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودي .
ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .
ويقول الحق سبحانه : { وَقِيلَ ياأرض ابلعي مَآءَكِ }

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

والبلع هو مرور الشيء من الحَلْق ليسقط في الجوف ، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :
{ وَقِيلَ ياأرض ابلعي مَآءَكِ } [هود : 44] .

فافهم أن القائل هو من تَنْصَاع له الأرض .

ولم يَقُل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابلعي ماءك »؛ لأن هناك أصلاً متعيّناً وإنْ لم يقُله ، والحق سبحانه يريد أن ينمّي فينا غريزة وفطنة الإيمان؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

ويكون أمره سبحانه للسماء : { وياسمآء أَقْلِعِي } أي : أن توقف المطر .

وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصبَّ ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحيّ تطفح إن كان هناك ما يسدُّ تصريف الماء؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي لا يمتص المياه؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجنّد طاقاتها لإصلاح مواسير الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة .

وأقول هنا : إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان؛ لأني ألحظ أن الناس حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء الشرعي ، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقيّ ليضيع دون جدوى .

وعلى الناس أن يدَّخروا الماء ، ولا يُسيئوا استغلاله؛ لأن الماء حين يتوفَّر فهو يُحيي الأموات ، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحاري ، ونحتاج لتخفيف العبء على شبكات الصرف الصحيّ . باختصار؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرُّف فيها؛ لننعم بها ، ونسعد بخيرها .

وقول الحق سبحانه :

{ وياسمآء أَقْلِعِي } [هود : 44] .

أي : اتركي المطر . . ومن ذلك أخذنا كلمة « قِلْع » الذي يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة ، وهو الشِّراع .

ويُقال : « أقلعت المركب » أي : تركت السكون الذي كانت عليه وهي واقفة على الشاطىء .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَغِيضَ المآء } [هود : 44] .

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذي أمر الماء بأن يغيض .

ومادة « غاض » تُستعمل لازمةً ، وتُستعمل متعديةً .

ثم يقول سبحانه :

{ واستوت عَلَى الجودي } [هود : 44] .

أي : استقرت السفينة على جبل الجودي .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين } [هود : 44] .

وهو بعدٌ نهائيٌّ إلى يوم القيامة .

وتتحرك عاطفة الأبوة في نوح عليه السلام ، ويظهرها قول الحق سبحانه : { وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي }

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45)

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمُّل أيُّ أبٍ أو أيُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتِّباع نجد المثل في إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

{ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة : 124] .

أي : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فاحضر حجراً ووقف عليه ليُعلي جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

{ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124] .

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفِّذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

{ وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124] .

فقال الحق سبحانه :

{ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

من هذا نعلم أن النبوَّة ليس لها بنوَّة ، بل النبوَّة لها أتباع .

ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقرَّ في ذهنه قول الحق سبحانه :

{ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر } [البقرة : 126] .

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه يبيّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط؛

لذلك قال الحق سبحانه :

{ وَمَن كَفَرَ } [البقرة : 126] .

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إنَّ عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن تناسباً عكسيّا ، فإن كان الابن قوّياً فعاطفة الأبوة والأمومة تقلُّ .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غني قائم بأمر الأبوين ويتكفَّل بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغَنِيّ ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن في حاجة؛ كانت العاطفة معه .

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحاً كان يملك المبرِّر طلباً لنجاة الابن؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه من أهله ، فقال :

{ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين } [هود : 45] .

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء؛ لأنه يطلب تحقيق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : { وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين } هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطىء؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .

ويقول الحق سبحانه : { قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ }

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46)

ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفتَ نبيَّه نوحاً إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع ، وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسي : « سلمان منَّا آل البيت » .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتِّباع ، لا بنوة نَسَب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

{ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } [هود : 46] .

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله :

{ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود : 46] .

فكأن البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

{ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين } [هود : 46] .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكّر جيّداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يربيّهم ربُّهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ رَبِّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ }

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47)

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقرُّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قبله مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

{ إِنِي أَعُوذُ بِكَ } [هود : 47] .

يوضّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قِيلَ يانوح اهبط بِسَلاَمٍ }

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)

وقوله الحق سبحانه :

{ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا } [يونس : 48] .

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل في تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل .

وقول الحق سبحانه :

{ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ } [هود : 48] .

تضمَّن أهل نوح عليه السلام ومَنْ آمن به ، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب .

أي : أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهي أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية في الأرض .

وقول الحق سبحانه :

{ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا } [هود : 48] .

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح عليه السلام أمره ، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول :

{ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا } [هود : 32] .

ولن يجد مَنْ يتهمه بالافتراء .

ومَنْ بقي مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذي بلَّغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه :

{ وَبَرَكَاتٍ } [هود : 48] .

يعني أن الحق سبحانه يبارك في القليل ليجعله كثيراً .

ويقال : « إن هذا الشيء مبارك » كالطعام الذي يأتي به الإنسان ليكفي اثنين ، ولكنه فوجيء بخمسة من الضيوف ، فيكفي هذا الجميع .

إذن : فالشيء المبارك هو القليل الذي يؤدِّي ما يؤدِّيه الكثير ، مع مظنَّة أنه لا يفي .

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة { وَبَرَكَاتٍ } لأن ما يحمله نوح عليه السلام من كلٍّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفي .

وقول الحق سبحانه :

{ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود : 48] .

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح عليه السلام هم الصفوة ، وبمضيِّ الزمن طرأت الغفلة على بعضٍ منهم ، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج .

وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت ، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المَجْل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه مُنتبراً ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً

أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خَرْدلٍ من إيمان » .

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « تُعرض الفِتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أشْرِبَها نُكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشْرِبَ مِنْ هَواه » .

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب .

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة ، وسيمتّعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضنَّ عليهم ، ولكن سَيَلحقُهم العذاب .

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثّرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثاني : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن مِنْ ذرية نوح عليه السلام « قوم عادٍ » الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك « قوم ثمود » الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوطٍ ، وهؤلاء جميعاً رَانَتِ الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ }

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

وكلمة « تلك » إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و « التاء » إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك إنك جلستَ إلى معلِّم ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب؛ ولذلك يأتي في القرآن :

{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر } [القصص : 44] .

وجاء :

{ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل

عمران : 44] .

إذن : فما دمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلَّم عن معلِّم فمَن علَّمك؟

إنما عَلَّمك الله سبحانه .

وكأن الله سبحانه وتعالى علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلِّمه إلى خصومة ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم : { فاصبر } ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه :

{ إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ } [هود : 49] .

تأتي بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمَّت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسلٍ جُددٍ إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية في النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدِّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوَّامة تردعه وتردُّه إلى الإيمان .

أما إذا تصلَّبتْ ذاتُه ، ولم توجد لديه نفس لوَّامة ، فالمناعة الذاتية تختفي ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بِلَوْمِهِ .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث ربُّ العزة سبحانه برسولٍ جديدٍ ، وبيِّنة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك يأتي قول الحق سبحانه : { وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً }

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50)

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به .

وحين يقول لهم :

{ ياقوم } [هود : 50] .

فهذا للإيناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

{ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ } [هود : 50] .

إلا لأن الفساد قد طَمَّ .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود : { ياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً }

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51)

وكأن هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذي يشقُّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه ، إنني أقدِّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتم ، ثم آخذ منكم مالاً مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة تَرْك ما تَعوَّدْتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة .

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلِّفكم بها ، كما أنني في غِنًى عن ذلك الأجر؛ لأن أجري على من أرسلني .

{ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الذي فطرني أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [هود : 51] .

أي : أنَّ أجري على مَنْ خَلَقني مُعَدّا لهذه الرسالة؛ لأن الفطرة تعني التكوين الأساسي للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة .

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمَّى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

{ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } [هود : 51] .

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه؛ لأن الأجر الذي تدفعونه في المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة!

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة :

{ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } [هود : 51] .

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها؛ لأن فرعون قال له :

{ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً } [الشعراء : 18] .

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجَمَّة ، وهي المنهج الرِّسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه : { وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ }

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول يارب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذي فات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هي مسخرة بأمر الله تعالى؛ فلا تنسيك رتابة الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحِّح العقيدة في قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقَّون عنه « افعل » و « لا تفعل » .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه « قوم عاد » ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدِّي الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منَّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين؛ حضارة الفرس في الشرق ، وحضارة الرومان في الغرب .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأمِّيين؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أمِّيٌّ أرسله الله سبحانه وتعالى؛ فيطيح بكل هؤلاء؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقل .

يريد هؤلاء إذن أن يقوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط؛ لأن العبادة معناها

أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود؛ وتتمثَّل أوامر المعبود في « افعل » و « لا تفعل »؛ وما لم يَرِدْ فيه « افعل » و « لا تفعل »؛ فهو مباح؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى؛ فلا تعزلوها في الطقوس؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغنا؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بني عليها الإسلام؛ وليست هي كل الإسلام .

إذن : فالإسلام بناء يقوم على أركان؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولنا .

فالعبادة تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العبادة تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

{ وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ } [هود : 52] .

والاستغفار لا يكون إلا عن ذنوب سبقت؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : { ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ } [هود : 52] .

والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ } [هود : 52] .

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه؛ جماده ونباته وحيوانه؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصي له أمراً؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

{ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأحقاف : 24] .

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة؛ إنما ربُّ الأسباب يملكها؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التي تنتظم بها كل حركة في الحياة؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض؛ وتوفِّر لنفسك القُوْتَ باستنباطه من الأسباب التي طمرها الله سبحانه وتعالى في الأرض .

والقوت كما نعلم من جنس الأرض؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

والسماء هي كل ما عَلاكَ فأظلَّكَ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .

وانظروا قول الحق سبحانه :

{ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } [الحج : 15] .

أي : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أي شيء ويربطه فيما علاه ويعلِّق نفسه فيه؛ ولسوف يموت ، وغيظه لن يرحل عنه .

{ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً } [هود : 52] .

والمدرار : هو الذي يُدِرُّ بتتابع لا ضرر فيه؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذي يتوالى تواليا مُصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول حين ينزل المطر : « اللهم حوالينا ولا علينا » .

ومتى أرسِل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً؛ فالأرض تخضرُّ؛ وتعمر الدنيا؛ ونزداد قوة إلى قوتنا .

أما مَنْ يتولَّى؛ فهو يُجرم في حقِّ نفسه؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه؛ لا تظنّ أن إجرام أيِّ عبدٍ بالمعصية يؤذي غيره .

والحق سبحانه يقول :

{ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [يونس : 44] .

ويأتي الحق سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذي قاله قوم عاد : { قَالُواْ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ }

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)

وهم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم بِبَيِّنة أو مُعجزةٍ .

والبيِّنة كما نعلم هي الأمارة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته؛ وتناسوا أن جوهر أي معجزة هو التحدي؛ فمعجزة نوح عليه السلام هي الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

{ ياقوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ } [يونس : 71] .

أي : إن كنتم أهلاً للتحدي ، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحْكِموا كيدكم؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الرباني؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاء نور الله في يد رسول من رسله؛ أو أن يخلِّصوا الدنيا منه بقتله . . ما حدث هذا أبداً .

إذن : فالبيِّنة التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر؛ وهو تحدي القادرين عليه؛ لأنهم أهل طغيان؛ وأهل بطش؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهي القرآن الكريم؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل عليهم جميعاً السلام قد جاءوا بمعجزات حسية كونية؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدَّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء .

فمثلاً شفى عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص بإذن ربه فمَنْ رآه آمن به ، ومَنْ لم يَرَه قد لا يؤمن ، وكذلك موسى عليه السلام ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أي واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قبل قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله ومعجزته القرآن؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً عامّا؛ ولا رسول من بعده؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس الباقي؛ ومع ذلك قالوا له :

{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً } [الإسراء : 90 92] .

وكل ما طلبوه مسائل حسية؛ لذلك يأتي الرد :

{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ }

[العنكبوت : 51] .

ومع ذلك كذَّبوا .

وأضاف قوم عاد :

{ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [هود : 53] .

هم إذن قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام « آلهة »؛ لأن الإله مَنْ يُنزل منهجاً يحدِّد من خلاله كيف يُعْبَد؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً؛ ولم تُبلغهم منهجاً .

إذن : فالقياس المنطقي يُلغي تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة؛ فلماذا عبدوها؟

لقد عبدوها؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجَّة كل ادِّعاء نبوة أو ادِّعاء مَهديَّة في هذا العصر ، فيدَّعي النبيُّ الكاذب النبوَّة ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات ، ويسمِّي ذلك ديناً .

وتجد مثل هذه الدَّعاوَي في البهائية والقاديانية؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة .

وقولهم :

{ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ } [هود : 53] .

يعني : وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : { وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [هود : 53] .

أي : وما نحن لك بمصدِّقين ، لأن (آمن) تأتي بمعاني متعددة .

فإنْ عدَّيتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

{ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 4] .

وإنْ عدَّيتها بحرف « الباء » مثل قول الحق سبحانه :

{ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ } [البقرة : 62] .

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية .

وإن عدَّيتها بحرف « اللام »؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ } [يونس : 83] .

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسواء }

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54)

و « إن » التي تُفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة « إن » الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ } [المجادلة : 2] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك } [هود : 54] .

أي : « ما نقول إلا اعتراك » .

وهكذا نعلم أن كلمة « إنْ » هنا جاءت بمعنى النفي .

و « إلا » هي أداة استثناء ، وقبلها فعل هو « نقول » ، وإذا وجدت أداة استثناء ، ولم يذكر المستثنى منه صراحة ، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل ، وإما أن يكون ظرف الفعل ، وإما أن يكون حال الفعل .

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء؛ لأنك سَفَّهتهم وأبْطَلتَ ألوهيّتهم ، وجئتَ بإلهٍ جديدٍ من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء يراد به الجنون فأخذتَ تخلط في الكلام الذي ليس له معنى .

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

{ قَالَ إِنِي أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّيَ برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [هود : 54] .

وهو يُشهِد الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله؛ لأن عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أنه مجنون؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

{ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 24] .

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُق له ، وفي هذا البيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قمة العقل؛ لأنه في قمة الخُلُق الطيّب .

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا : أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه بريء من تلك الآلهة التي يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام : { مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ }

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55)

وقوله : { مِن دُونِهِ } أي : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد؛ وإن كادت

الكثرة المتجبِّرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو عليه السلام هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدي .

والتحدي هنا معجزة؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو عليه السلام متأكد من قوله :

{ أُشْهِدُ الله } [هود : 54] .

الذي قاله في الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمي مثل هذا التحدي جزافاً ، لأن الإنسان لا يجازف بحياته في كلمة .

وهو لم يَقُلْ : { فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ } [يونس : 55] إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ، يقول الحق سبحانه :

{ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } [آل عمران : 18] .

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم ، والله سبحانه وتعالى حين شهد لنفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة .

وقد أشهد هود عليه السلام ربَّه سبحانه ، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولاً ليُمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام : { إِنِّيَ تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ }

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكَّل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابَّة تدُّب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدّم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدُّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام } [الرحمن : 41] .

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

{ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية } [العلق : 15] .

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلِّطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة مثلاً على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

{ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [هود : 56] .

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال في صدر الآية :

{ رَبِّي وَرَبِّكُمْ } [هود : 56] ، وفي عَجزُ الآية قال : { إِنَّ رَبِّي } [هود : 56] ، والسبب في قوله : { رَبِّي وَرَبِّكُمْ } [هود : 56] أنهم كانوا قادحين في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة : { رَبِّي وَرَبِّكُمْ } أما في عجز الآية فقال :

{ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [هود : 56] .

أي : أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأتِ هنا بشيء يخصُّ أربابهم؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه .

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قُدرته ، وقَهْره وسيطرته ، ولا شيء يُفلت منه ، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)

الفعل « تولَّوا » أصله : « تتولَّوا » ، وفي اللغة : إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى :

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم ، ولا عُذر لكم عندي؛ لأن الحق سبحانه لا يعذِّب قوماً وهم غافلون؛ لذلك أرسلني إليكم .

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبّين له : فإن تولَّوا فقل لهم : { أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ } [هود : 57] .

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء لقوم ، إما أن يكونوا عادلين؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه :

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات } [مريم : 59] .

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيّباً :

{ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ } [النور : 55] .

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم } [محمد : 38] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً } [هود : 57] .

لأن المنهج الذي نزل على الخَلْق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد ، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم ألفتم التمرد؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض »؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك؟

إنك لن تستطيع؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم التوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

{ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } [هود : 57] .

فالله سبحانه رقيب؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

ولهؤلاء نقول : لا؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه :

{ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ } [البقرة : 255] .

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد؛ لينام وا ويرتاحوا؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن الغَفْلة أو النوم ، بل هو سبحانه قيوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ }

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58)

وساعة تسمع { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } فأنت تعرف أن هناك آمراً وأمراً مُطاعاً ، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ :

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الإنشقاق : 12] .

إذن : فهي بمجرد السمع نَفَّذت أمر الحق سبحانه .

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجي موسى عليه السلام من الذبح الذي أمر به فرعون؛ أوحى الله سبحانه لأمِّ موسى قائلاً :

{ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .

وكيف تفعل أمٌّ ذلك .

إن كل أمٍّ إنما تحرص على ابنها؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقَّق ، لكن أم موسى استقبلت الوحي؛ ولم تتردد؛ مما يدل على أنها تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهامٍ واردٍ إليها من الله سبحانه؛ إلهام لا ينازعه شَكٌّ أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

{ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 39] .

وقد استقبل البحرُ الأمرَ الإلهي؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

{ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور } [هود : 40] .

وحدث الطوفان؛ ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 58] .

يعني : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة؛ تتناسب في دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى .

فحين تأتي رِيحٌ صَرْصَرٌ أو صَيحةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله؛ فقد يَعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان؛ وتترك آذان المؤمنين؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير . إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهي صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سِجِّيل التي رمتها طير أبابيل على أبرهة الحبشي وجنوده؛ مع نجاةَ جنود قريش بنفس الحجارة؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد؛ ولكنه يُنجي المؤمن؛ ويعذِّب الكافر؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه .

يقول المتنبي :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أوجُهِنا ... وَمَا تُسوِّدُ بِيضَ العَينِ واللَّمَمِ

وَكَانَ حَالُهُما فِي الحُكْمِ واحِدَةً ... لَو احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إلَى حَكَمِ

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ، لكن إن تركت شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا } [هود : 58] .

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام؛ لأن هذه هي الرحمة .

والرحمة كما نعلم هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء : 82] .

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاتين :

النجاة الأولى : من العذاب الجامع؛ الريح الصرصر؛ من الصيحة؛ من الطاغية ، يقول سبحانه :

{ نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود : 58] .

والنجاة الثانية : هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا .

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة .

وغلظ الشيء يعطي له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم .

ولذلك حينما يُمَلِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعِرْض ، ولم يُمَلِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة التي يتزوجها؛ فالزوج يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه :

{ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً } [النساء : 21] .

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ }

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59)

و « تلك » إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين « عاد » المكان ، و « عاد » المكين ، وهم قوم عاد؛ لذلك قال سبحانه { جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } [هود : 59] فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و « عاد » إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التي عاشت في المكان ، فإذا أشار سبحانه ب { تِلْكَ } فهي إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

{ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } [هود : 59] .

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات كما نعلم جمع آية ، وهي الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحي بإيمان بما تنص عليه .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ } [هود : 59] .

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنيُّ بالعصيان هنا؟

نقول : لا؛ لأن الله عز وجل قال :

{ وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ } [آل عمران : 81] .

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ } [البقرة : 285] .

فهم قد انقسموا إلى قسمين؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود : 59] .

أي : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثاني هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفِرَق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ في ذاته ، وهناك مُضِلٌّ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران : وزر ضلالة في ذاته ، ووزر إضلال غيره .

أما الذين اتَّبعوا فلهم بعض العذر؛ لأنهم اتَّبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول :

{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ } [البقرة : 78] .

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول :

{ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً } [البقرة : 79] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَأُتْبِعُواْ فِي هذه الدنيا لَعْنَةً }

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام : حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ ، وساعة يبعثون هي الزمن الثالث .

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 28] .

هذه هي الأزمنة الثلاثة حياة ، وبرزخ ، وبعث وكل وقت منها له ظرف .

ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

{ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب } [غافر : 46] .

وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار » .

إذن : فهنا زمنان : زمن عرضهم على النار غدوّاً وعشيّاً ، وزمن دخولهم النار .

وهذا يثبت عذاب البرزخ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .

وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [هود : 60] .

وكلمة « ألا » هي أداة تنبيه كما قلنا من قبل تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة « ألا » كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم ، ثم أتبعوا لعنة من البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرى قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيَّن بكلمة « ألا » أي : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة؛ لذلك نالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية؛ لذلك تواصل لعنهم في البرزخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم .

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الجزاء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام :

{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [هود : 56] .

أي : أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

{ ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [هود : 60] .

فأنت لا تكتفي بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

{ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [هود : 60] .

ونقول : لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن :

{ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى } [النجم : 50] .

وهذا يوضح لنا أن « عاداً » كانت اثنتين : عاداً الاولى ، وهم قوم عاشوا وضَلُّوا فأهلكهم الله ، وهناك عاد الثانية .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً }

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام .

وجاء الحق سبحانه بلفظ { أَخَاهُمْ } ليبين العلاقة التي بين صالح عليه السلام وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة وقد لمسوا صدقه فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج .

وناداهم صالح عليه السلام : { ياقوم } ، وهي من القيام ، يعني : يا من تقومون للأمور .

والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال؛ لأن أمر النساء مستور دائماً في طي الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتي فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مطويات على الستر في ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السُكْنى وتربية الأولاد .

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل .

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة؟

وكذلك يجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك : إذا كنت لم تنتقد التهتك في الملابس ، ووَصَفْتَهُ بأنه « حرية » ، فلماذا تتدخل في أمر الحجاب ، ولا تعتبره « حرية » أيضاً .

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها { اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [هود : 61] والعبادة تقتضي تلقي أوامر الإله المعبود ب « افعل » و « لا تفعل » في كل حركة من حركات الحياة .

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود { اعبدوا الله } وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسع أحداً مخالفته .

{ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [هود : 61] .

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى .

ويقول الحق سبحانه :

{ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61] .

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أي : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر .

لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه « أنشأ » لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبره تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي ينشيء من عدم .

والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة بموجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه جلَّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مَردُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

{ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61] .

نجد فيه كلمة { استعمركم } وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها للطلب ، وهكذا يكون معنى كلمة « استعمر » هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أخرى : « دول الاستعمار » .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخربون في الأرض؛ ولذلك كان يجب أن تسمى « دول الاستخراب » .

{ واستعمركم فِيهَا } أي : طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين : أن يبقي الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيدوه صلاحاً .

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأواني المستطرقة ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأواني المستطرقة ، فاستغلها الناس في بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل ، وهكذا يزداد في الأمر الصالح صلاحاً .

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة في عدد السكان .

وما دام عدد السكان في زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح؛ لأن الأزمة التي نعاني منها الآن ، هي نتيجة للغفلة التي مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضي أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة في السكان .

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض .

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلَّى على الخَلْق بصفات من صفاته ، فالقويُّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنىً؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا .

والدليل على ذلك أن القوي فينا يصير إلى ضعف ، والغني منا قد يصيبه الفقر؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل .

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً على سبيل المثال فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً وليستفيد بها من يأتي من بعده .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه « ثمود » في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } [هود : 61] .

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة .

فماذا كان الرد من قوم ثمود؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم : { قَالُواْ ياصالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا }

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)

كانوا ينظرون إلى صالح عليه السلام بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجوُّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خصلة من الخصال التي تبشر بأنه له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه بتلك الدعوة إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملون فيه .

وقد أوضح لهم صالح عليه السلام ما أوضحه الرسل من قبله ومن بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعْبد هو أمر خاطىء؛ لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج؛ يتبعه من يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

{ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [هود : 62] .

والشك هو استواء الطرفين : النفي والإثبات .

إذن : فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود : { قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي }

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63)

وكأن صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال : أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيَّدني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليَّ منهجاً أدعوكم إليه؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة { وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً } [هود : 63] وهي النبوة؟

{ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِنْ عَصَيْتُهُ } [هود : 63] .

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام :

{ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } [هود : 63] .

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال . فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه .

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها ، فإن أطاعهم صالح عليه السلام وعصى ربه ، فهو قد أزاد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى .

إذن : فالتخسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح عليه السلام وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام : { وياقوم هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً }

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64)

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبيّاً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة ما ، وهم قوم كانوا نابغين في نحت بيوتهم في الجبال . ومن يَزُورْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

{ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ } [الشعراء : 149] .

هم إذن قد حددوا الآية ، وهي خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهي حامل .

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

{ وياقوم هذه نَاقَةُ الله } [هود : 64] .

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلما نقول : « بيت الله » ، وهذا القول إن أُطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : « بيت الله » فنحن نبني عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكرت لتكون مُصَلّى ، ولا يُزاوَل فيها أي عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هي بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هي بيوت لله باختيار خَلْق الله .

ولذلك فبيت الله باختيار الله هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : { هذه نَاقَةُ الله } [هود : 64] وهي ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه .

ومثال ذلك : « ابن أبي لهب ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحين اشتد عناد أبي لهب للرسول صلى الله عليه وسلم ، قال أبو لهب لابنه : طلق بنت محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : » أما إني

أسأل الله أن يسلط عليه كلبه « .

فقال أبو لهب : إني لأتوجس شرّاً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد » ، فهنا نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر إلى الله فقال : « أكلك كلب من كلاب الله » فكان كلب الله أسداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها . وقال لهم : { فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ } [هود : 64] .

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسّوها بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها .

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية : { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ }

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام ثم جاءهم العذاب .

ولقائل أن يقول : ولِمَ الإمهال بثلاثة أيام؟

ونقول : إن العذاب إذا جاء فالألم الحسّي ينقطع من المعذَّب ، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حِسّيًا ، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذي قال فيه الله تعالى :

{ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود : 65] .

الحق سبحانه هو الذي يَعِدُ ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشيء ، فمن الممكن أن يأتي وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع . لذلك يقول لنا الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَآىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } [الكهف : 2324] .

لأنك إن قلت : « أفعل ذلك غداً » ، وتعد إنساناً بلقائه لكذا وكذا؛ فقل : « إن شاء الله »؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتي ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور « بمشيئة القوي القادر » حتى إذا لم ينجز ما وعد به؛ يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شيء .

والفعل كما نعلم يقتضي فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكِّن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من كل هذا؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من يعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للِّقاء؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب .

إذن : فإذا قال : « أفعل ذلك غداً مع فلان »؛ يكون قد جازم وتكلم في شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله » ، أي : أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطي الحق سبحانه في كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل :

{ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود : 65] .

وقوله : { فِي دَارِكُمْ } لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً في مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم في أي مكان .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه « أبو رغال » ، وكان يحج إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه في بيت الله؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أوْلى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام ، وظل الحجر الذي سيُضرب به ، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه .

. وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح ، وتتبع من في الديار إلا هذا الرجل ، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب .

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج ، وكانوا يُضيِّقون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام ، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام ، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضي زماناً ، ويقتضي مكاناً .

وكان العرب دائمي الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال؛ فكانت الأشهر الحرم؛ لان الحرب قد تكون سجالاً بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة والعزة .

وكل واحد منهم يحب في ذاته أن ينتهي من الحرب ، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان ، فحرم القتال في الأشهر الحرم .

وما إن تأتي الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمي الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليداري كبرياءه؛ لأنه في أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه : لو لم يدخل الحرم؛ لأذقته عذاب الهزيمة .

وبمضيِّ الزمان وبالمكث في المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ }

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66)

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود ، بعد مُضيِّ المدة التي أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجَّى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .

هذا الذل وتلك الفضيحة التي حاقت بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز } [هود : 66] .

هذا خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر

يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء ، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة }

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67)

ويسمي الحق سبحانه هنا العذاب الذي نزل على ثمود « الصيحة » وسمّاه في موضع آخر « الطاغية » :

{ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية } [الحاقة : 5] .

وسمّاه في موضع آخر « صاعقة » فقال سبحانه :

{ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ } [فصلت : 13] .

وفي سورة الأعراف سمّاه « الرجفة » ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة تؤدي معنى الحدث الذي يَدْهَمُ ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة »؟ لماذا اختفت تاء التأنيث من الفعل ، وقال سبحانه :

{ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة } [هود : 67] .

ونقول : إن الذي يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التأنيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : « أخذ » ولم يقل : « أخذت » .

ثم قال سبحانه :

{ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 67] .

أي : مُلْقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ }

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)

ومادة « غَنِيَ » . . « غِنىً » ، أو « غَنَاءً » كلها متساوية؛ لأن الغَنَاء هو الوجود؛ وجود شيء يُغْنِي عن شيء ، فالغِنَى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع

من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغَناء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

{ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس } [يونس : 24] .

أي : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ } [هود : 68] .

أي : لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية : { أَلاَ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفرُواْ رَبَّهُمْ } [هود : 68] ، وهذه هي حيثية العذاب الذي نزل بهم .

وعادة ما تتعدى كلمة « كفر » بالباء ، ويقال : كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا :

{ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفرُواْ رَبَّهُمْ } [هود : 68] .

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى { كَفرُواْ رَبَّهُمْ } أي : ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى « كفروا بربهم » هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به .

وقول الحق سبحانه : { كَفرُواْ رَبَّهُمْ } يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكثر منه في الذنوب .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ } [هود : 68] .

أي : أنهم : يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم .

ويأتي الحق سبحانه في الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهي جزء من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه : { وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى }

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69)

وكلمة « رسل » جمع « رسول » ، والرسول هو المرسَل من جهة إلى جهة ، وأي إنسان تبعثه إلى جهة ما؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعي للرسول : أن يكون مُرسَلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه :

{ الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس } [الحج : 75] .

واصطفاء الملائكة كرسل لتيسير التلقِّي عن الخالق سبحانه؛ لأن القوة التي تتلقى عن الخالق

سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتي لنا الله جَلَّ عُلاَه بالرسل ، فيصطفي من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقي لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقي من الله تعالى ، ولا كل البشر بقادرين على التلقي عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحلقات في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن يأخذ من الأقوى؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم؛ لا نصطدم بمتاع البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصَاب نحن إن اصطدمنا بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوي .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتي بمصطفى من الملائكة ، يتلقى عن الحق سبحانه ويبلغ المَلَكُ من هؤلاء الرسولَ المصطفى من البشر .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ } [الشورى : 51] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى } [هود : 69] .

والبشرى هي الإخبار بشيء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهي عكس الإنذار الذي يعني الإخبار بشيء محزن قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم عليه السلام البشارة التي جاءوا من أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، فمن أدب الدخول إلى أي مكان أن نسلِّم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا } [النور : 27] .

ولذلك يأتي الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

{ قَالُواْ سَلاَماً } [هود : 69] .

وجاء سبحانه بردِّ إبراهيم عليه السلام :

{ قَالَ سَلاَمٌ } [هود : 69] .

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم : { سَلاَماً } دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة { سَلاَمٌ } بالرفع؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ }

[النساء : 86] .

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود : 69] .

والعجل هو ولد البقر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا بقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أي موضع هي لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها ، فإذا جُمِعَتْ اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

{ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض } [الأنعام : 75] .

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين * فَلَمَّآ رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين * فَلَماَّ رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ ياقوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين } [الأنعام : 7679] .

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام فخاطب عمه باحترام لمكانته التي تساوي منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

{ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * ياأبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً * ياأبت إِني أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ

مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [مريم : 4145] .
فهذه الآية تبين رفق الداعي مع جمال العرض .
فأصرَّ العَمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :
{ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي } [مريم : 47] .
وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .
ثم هناك لقطة من يُحاجِج إبراهيم في ربه :
{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } [البقرة : 258] .
وكانت تلك سفسطة في القول ناتجة عن عجز في التعبير ، فليس إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال :
{ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب } [البقرة : 258] .
وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتي في موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :
{ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ }

[الشعراء : 6974] .
وفي هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .
ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :
{ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } [الشعراء : 7882] .
يقول رب العزة سبحانه في سورة الأنبياء :
{ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين } [الأنبياء : 5156] .
هذه هي التربية اليقينية التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام ليعلمنا كيف يكون الإيمان؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصَّل إلى عبادة مَنْ خَلَقه وخَلَق الكون ، وهو الصانع الذي يضع قانون صيانة ما يصنع سبحانه وتعالى :

ولذلك نلاحظ قوله :

{ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] .

فلم يقل : « الذي خلقني يهديني » لأن هذه دعوى؛ ستُدَّعى ، وسيضع الناس قوانين لأنفسهم ، فبيَّن الحق سبحانه أن الذي خَلَق هو الذي يَهْدِي .

وجاء الحق سبحانه بكلمة « هو » لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة « هو » كقوله :

{ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] .

فما لا شركة فيه عند الخَلْق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

{ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 80] .

فقد قال : « إن الطبيب هو الذي يشفيني » ، ولكن ذلك غير حقيقي؛ لأن الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام :

{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت } [البقرة : 127] .

إذن : فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم القصص ، فذلك لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم :

{ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض لكثير من الأحداث فيذكِّره الله سبحانه بما حدث للرسل عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود : 69] .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

{ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر : 52] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه هذا الموقف :

{ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلَيمٍ } [الذاريات : 28] .

أي : أحس في نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجيد؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل في الإدراك أو المواجيد ، ولكنه يتدخل في النزوع ، إلا في أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال في المرأة .

لذلك أمر الشرع بغض البصر؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفوري؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهنا بيَّن الحق مواجيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

{ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ } [هود : 70] .

وجاء بالمعنى النزوعي حين قال :

{ قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ } [هود : 69] .

وهو حين التأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

{ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود : 69] .

وهو : العجل السمين المشوي على الحجارة؛ لأن الشواء كما نعلم قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جدّاً ، ويحمُّونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة : { بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود : 69] .

أي : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

{ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } [هود : 69] .

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم .

ومن عادة الكرام أن يُعجِّلوا بإكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً؛ أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك .

ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوي : { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ }

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70)

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شرّاً ونكرهم ، أي : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدَّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بيَّن ذلك قول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

{ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بالحق فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } [الحجر : 5258] .

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

{ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ } [هود : 81] .

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

{ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ } [هود : 70] .

أي : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة؛ لأن المَلك قد يتشكل في هيئة إنسان ، مثلما تشكَّل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل في صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

ألم يَقُلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن عفريتاً من الجن تفلَّت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان :

{ قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب } [ص : 35] .

فرددته خاسئاً » .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجني هي التي تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجني متشكلاً في صورة إلا لحظة قصيرة ليختفي على الفور؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمتم أن الصورة التي تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به؛ لذلك فالجن يخافون

من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ } [هود : 70] .

وكلمة { نَكِرَهُمْ } تقتضي أن ننظر في مادة « النون والكاف والراء » وكلمة « نكر » وكلمة « أنكر » كلتاهما مستعملة في القرآن .

والشاعر يقول :

وَأَنْكَرتَنِي ومَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوادِث إلاّ الشَّيبَ والصَّلَعا

والاستعمال اللغوي يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات ، أي : ينكرها الإنسان بفطرته .

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم ، وأوجس في نفسه خيفة ، فلاحَظوا ذلك ، وقالوا :

{ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ } [هود : 70] .

وهكذا عرف لمن جاءوا ، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول : إن إمرأة إبراهيم عليه السلام قالت له : ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب .

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من فراستها ، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } [الذاريات : 3234] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ }

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71)

فعندما كانت أمرأته قائمة على خدمة الضيوف ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً ، وبشَّرتها الملائكة بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان إليه ، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت

التسعين من عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً . وفي هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

{ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً } [النحل : 72] .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود : 71] .

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالت البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام؛ لما جاءوا به من الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأي أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هي الغلام ، وكان ذلك حُلْماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه : { قَالَتْ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ }

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72)

والشيء العجيب هو الذي يخالف نواميس الكون المعتادة ، ولكن هناك فرقاً بين النواميس وخالق النواميس ، الذي هو قادر على أن يخرق النواميس .

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر :

{ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر } [الحجر : 54] .

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت :

{ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً } [هود : 72] .

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد .

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به ، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمِّي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعة أن يسقيه ، وإنما يكتفي النخل بما يمتصه من الأرض ، وما ينزل له من مطر السماء .

وكذلك سُمِّي نوع من الفول « بالفول البعلي » ، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء .

إذن : فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء .

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير

انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها .

ويقول الحق سبحانه عن ذلك : { قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله }

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

والعجب إذن إنما يكون من قانون بشري ، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يخرق الناموس . . ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى ، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية .

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت في قصة زكريا عليه السلام ، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها :

{ أنى لَكِ هذا } [آل عمران : 37] .

فقالت مريم :

{ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

إذن : فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق سبحانه وخَلْقه .

ولذلك ياتي قول الحق عز وجل :

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } [آل عمران : 38] .

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم :

{ إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

فمن حقه أن يدعو :

{ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً } [آل عمران : 38] .

فأوحى له الله سبحانه وتعالى :

{ يازكريآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } [مريم : 7] .

أي : أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماه له أيضاً باسمٍ لم يسبقه إليه أحد .

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم « يحيى » فقد فعلوا ذلك من باب الفأل الحسن في أن يعيش الابن .

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، فقد سماه « يحيى » ليحيا بالفعل ، ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتي الموت؛ لذلك قُتِل يحيى وصار شهيداً ، والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبداً .

وهذا عكس تسمية البشر؛ لأن الإنسان قد يسمي ابنه « سعيد » ويعيش الابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه « يحيى » :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ الله فيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نبهت إلى قضية الرزق من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن وأن زوجه عاقر .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

{ كذلك قَالَ رَبُّكَ } [مريم : 9] .

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي قرَّر ، فلا رادَّ لما أراده ، ولذلك يقول سبحانه :

{ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 9] .

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرْق النواميس التي تعرضت هي لها بعد ذلك ، حينما تمثَّل لها المَلك بشراً ، وبشَّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك وهي التي لم يمسسها بشر فيذكِّرها الملك بأنها هي التي أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق في أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

{ إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وكان لا بد من طمأنتها؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى عليه السلام دون أب هي مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهي آمنة ، غير مرتابٍ فيها ولا متهمة .

والآية التي نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدَّره الله تعالى وأراده ، خلافاً للناموس الغالب في خلقه؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء في غير الأوان المعتاد .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

{ رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت } [هود : 73] .

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

{ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } [هود : 73] .

أي : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده ، فلا حد لخيره وإحسانه ، والله تعالى مُطْلَقُ صفات المجد .

وكلمة « حميد » في اللغة من « فَعِيل » وتَرِدُ على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : « الله رحيم » بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول؛ كقولنا : « قتيل » بمعنى « مقتول » .

وكلمة « حميد » هنا تأتي بالمعنيين معاً : « حامدٌ » و « محمودٌ » ، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه « الشكور »؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله سبحانه « حميدٌ »؛ لأنه حامدٌ لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه « محمودٌ » ممن أنعم عليهم نعمه السابغة .

والله سبحانه هو المجيد الذي يعطي قبل أن يُسأل .

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضعه في يده ، ثم رجع إلى أهله يبكي ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أديت له حق سؤاله؟ قال : أنا أبكي لأني تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين في بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى في كل لقطة من لقطات القرآن يعطي فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيذ للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال : لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فَلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه في تناول الطعام .

ويروي بعض العارفين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ألا تأكلون؟ قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام . فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحي الإلهام : ثمنه أن تُسمُّوا الله أوله ، وتحمدوه آخره .

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت في أوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » وإذا انتهيت منه وقلت : « الحمد لله »؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم } [التكاثر : 8] .

وهكذا بيَّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد أطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هي مكلفة بتعذيب قوم لوط .

وهنا يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الروع }

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74)

والجدل هو أن تأخذ حُجَّة من مقابل؛ وتعطيه حُجَّة؛ لتصل إلى حق . والجدل يختلف عن المراء فالمراء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون الجدال بالتي هي أحسن .

وهنا يبيّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

{ قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ } [الذاريات : 32 34] .

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط ، لم تكن ردّاً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام؛ قلب رحيم .

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ }

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

إذن : فالعلة في الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ، وأوَّاه؛ أي : يتأوه من القلب ، والتأوه رقة في القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعني الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة .

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوُّههُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم .

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه « منيب » أي : يرجع إلى الحكم وإلى الحق في قضاياه .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز :

{ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ } [التوبة : 114] .

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

{ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة : 114] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها والتي أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم عليه السلام في الجدال ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

{ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى قالوا إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً } [العنكبوت : 3132] .

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين } [العنكبوت : 32] .

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يبيح له الجدال

عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية : { ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هاذآ }

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

وقول الملائكة :

{ ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هاذآ } [هود : 76] .

يعني إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنتهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهدِّدوا؛ وأبلغوا إبراهيم :

{ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبَّكَ } [هود : 76] .

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه { مُّنِيبٌ } يعلم أن أي أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذ ، فلا بد أن يَتقبَّل أمرَ الحق سبحانه :

{ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود : 76] .

أي : لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله . وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود .

ويُروى أن إبراهيم عليه السلام في جداله قال للملائكة : إذا كان في قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى ، أتعذبونهم؟ قالوا : لا . قال : وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله ، أتعذبونهم؟ قالوا : لا . قال وإن كان فيهم واحد هو لوط؟ فردَّت الملائكة :

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته } [العنكبوت : 32] .

وانتهى الجدال ، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط .

ويقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سياء بِهِمْ }

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)

أي : أن لوطاً شعر بالسوء ، وضاق بهم ذرعاً ، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء ، وأي شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به ، وإن لم تَطُله ذراعك؛ قلت : « ضقت به ذرعاً » أي : أن يدي لم تطله ، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي ، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل .

وما الذي يسيء لوطاً في مجيء الملائكة؟

قيل : لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال : « فلان ملاك » ، أي : شكله جميل .

ولوط عليه السلام يعلم أن آفة قومه هي إتيان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهي ترحب بتلك الآفة .

ويُقال : إنها تنبهت لمجيء الرجال الحِسان ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب وصعدت إلى سطح المنزل ، وصفقت لعل القوم ينتبهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال .

وهنا قال لوط عليه السلام :

{ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [هود : 77] .

أي : يوم شديد المتاعب .

ويقال : « يوم عصيب » و « يوم عصبصب » ، ومنه « العُصْبَة » وهم جماعة يتكاتفون على شيء ، ويقوى الفرد بمجموعهم ، وقد صدق ظن لوط .

وفي هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك : { وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78)

وقول الحق سبحانه : { وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } [هود : 78] .

أي : يسرعون إليه في تدافق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة ، يكون متردداً خائفاً ، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط .

وكلمة « يهرعون » هي من الألفاظ العجيبة في اللغة العربية ، وألفاظ اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا : « يضربُ زيدٌ عَمْراً » أي : أن الضارب هو « زيد » والمضروب هو « عمرو » ، ونقول : « يُضْرَبُ عمرو » أي : أننا بنينا الفعل للمجهول ، وسُمِّي عمرو « نائب فاعل » .

أما في الفعل « يُهْرَعُ » فلا نجد أحداً يقول : « يُهرع » إلا ويكون بعدها فاعل وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل « جُنَّ » فهل هناك من يأتي لنفسه بالجنون ، أم أن الجنون هو الذي جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؛ ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتي بعدها يكون فاعلاً . وهذا من إعجاز البيان القرآني .

وكذلك نقول : « زُكِمَ فلان » فمن الذي أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام .

إذن : فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبني الفعل للمجهول ، ولكن ما يأتي بعده يكون فاعلاً .

وقول تعالى :

{ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } [هود : 78] .

يبيّن أنهم أقبلوا باندفاع ، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين ، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تَهَيُّب ، باندفاع من نفسه ودَفْع من غيره ،

مثلما تقول : « سنوزع تموينا بالمجان »؛ هنا تجد الناس يتدافعون ، كل منهم من تلقاء نفسه ، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء .

وقوم لوط كانوا على دُرْبة بتلك الفاحشة .

يقول الحق سبحانه عنهم :

{ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات } [هود : 78] .

أي : أن هذه المسألة عندهم كانت محببة ، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم ، ولا حياء يمنعهم عنها .

فالحياء يعني أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها ، لكن إذا ما كانوا يحبون تلك السيئة ، فلن يخجل أحد من الآخر .

وماذا يكون موقف لوط عليه السلام في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفي كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكَّر لوط عليه السلام في أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

{ قَالَ ياقوم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } [هود : 78] .

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العُرْف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زَوَّجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إحدى بناته لعُتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صُلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

{ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي } هود : 78] .

وكلمة « ضيف » كما نعلم جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول : « هذا ضيفي » ، وإن جاء اثنان تقول : « هذان ضيفي » ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفي » ، وإن كانتا امرأتين تقول : « هاتان ضيفي » ، وإن جاءت جماعة تقول : « هؤلاء ضيفي » .

والحق سبحانه يقول :

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين } [الذاريات : 24] .

وهناك ألفاظ أخرى كذلك في اللغة مثل : كلمة « طفل » فهي مفرد؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة « طفل » وُجِد لها جمع هو « أطفال » .

والحق سبحانه يقول :

{ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بني إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء } [النور : 31] .

إذن : فكلمة « طفل » تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة .

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه في ضيفه ، والخزي فضيحة أمام النفس وأمام الناس .

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيىء ما لم يره أحد ، أما أن يراه الناس ، ففي هذا فضح له؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس ، والهوان أن يكون العمل السيىء بينه وبين نفسه .

ويتساءل لوط عليه السلام :

{ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ } [هود : 78] .

أي : ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة ، يمنع هذه المسألة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ }

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79)

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا .

وكان هذا يعني الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال في الجمال .

ويأتي الحق سبحانه برد لوط عليه السلام : { قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً }

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

وساعة تقرأ كلمة « لو » فهذا هو التمني ، أي : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : « لو أن زيداً عندك لجئت » ، لكن نجد هنا

شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : « لو أن لي بكم قوة لفعلت كذا وكذا » .
ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد؛ ولذلك قال :
{ أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود : 80] .
والشيء الشديد هو المتجمّع تجمُّعاً يصعب فَصْلُه ، أو المختلط اختلاطاً بمزجٍ يصعب تحلُّله؛ لأنك حين تجمع الأشياء؛ فإما أن تجمع أشياء أجناسها منفصّلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوي ، لكن كليهما المصلوب والشجرة ، منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمَّى خلطاً ، وهناك ما يُسمَّى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء الممتزجة ببعضها .
ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر؛ فهذا مزج يصعب حَلُّه .
وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في مَنعةٍ من قومه ، أهل « سدوم » ويقال : إنها خمس قرى قريبة من « حمص » .
وقد تعجَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول لوط ، فقال فيما رواه البخاري :
« رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد » .
فَلِهوْل ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام : { قَالُواْ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ }

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

وهكذا علم لوط لأول مرة أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم .
وهم حين أخبروا لوطاً : { إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ } [هود : 81] فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ليلاً أي : أخرج بأهلك في جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال بقوم لوط هو الصبح :
{ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ } [هود : 81] .

لذلك قالوا :

{ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اليل } [هود : 81] .

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ } [هود : 81] .

والالتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل . فهل المقصود هو الالتفات الحسي أم الالتفات المعنوي؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعد الالتفات المعنوي ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسي .

وتوصي الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماه ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح :

{ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ } [هود : 81] .

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً .

ويقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا }

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82)

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية « سدوم » وقرية « دادوما » وقرية « ضعوه » ، وقرية « عامورا » وقرية « قتم » .

وقوله تعالى :

{ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [هود : 82] .

أي : انقلبت انقلاباً تامّاً .

ويقول القرآن في موضع آخر :

{ والمؤتفكة أهوى } [النجم : 53] .

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، أي : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .
كذلك المؤتفكة ، أي : القرى التي جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .
ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجَّر .
والحق سبحانه يقول في آية أخرى { حِجَارَةً مِّن طِينٍ } [الذرايات : 33] .
وكلمة « حجارة » تعطي الإحساس بالصلابة ، أما كلمة « طين » فتعطي إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذي نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . أي : يتتابع في نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك : { مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ {

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

وكلمة « مسوَّمة » أي : مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذلك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة في هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أي : الإنسان ، ولا تدمر البلاد .
وهي مُرتَّبة؛ لأن الحق سبحانه قال :
{ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ } [هود : 82] .
ووردت كلمة (سجيل) أيضاً في قول الحق سبحانه :
{ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ } [الفيل : 34] .
ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :
{ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ } [هود : 83] .
والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق سبحانه وتعالى التي تتابعت في الموكب الرسالي وخاتمها هو محمد صلى الله عليه وسلم .
ونحن نعلم أن القصص القرآني قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكرة بالأسوة :
{ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] .
وتحكي القصص المعارك التي قامت بين كل رسول مُؤيَّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم؛ فالسماء هي التي تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 614] .

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن دين محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الذي تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول صلى الله عليه وسلم .

وعلى كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه؛ لأنه قائم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحق سبحانه يقول :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة : 143] .

إذن : فكل واحد من أمته صلى الله عليه وسلم هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه؛ لأنك قد تُكره إنساناً في الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبي الذي يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 34] .

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم تفويضين : فُوِّضَتْ في نقل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وها هو صلى الله عليه وسلم يقول : « نَضَّر الله امرأ سمع مقاتلي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع » .

وفُوِّضَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم في أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفع سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه :

{ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .
فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعيب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المخالفين؟!
إذن : فقد آمن المؤمن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إيمانين : الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .
فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة وينساح بالدعوة في الأرض ليعلِّم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً في اختيار الدين .
وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين .
وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم .
ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو في مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا في آذان القبائل الواهية في أطراف الجزيرة ، ولكن في آذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال : إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجرؤ على السادة ، وهم قريش ، التي أخذت السيادة بحكم إقامتها في مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام .
وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت .
إذن : فالبيت هو الذي صنع السيادة لقريش ، وهو الذي صنع السيادة للآلهة المدَّعاة من الأصنام حين يأتي كل قوم بإلههم من الحجر؛ ليضعوه في البيت؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت .
إذن : فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسَفَّه أحلامهم ، ولم يُبَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .
ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة؛ فكأن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل في رسالة

محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيَّن لهم أن المكان الذي قُلِبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة؟

والظلم كما نعلم هو مجاوزة الحق للغير ، أي : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذي حق ، فإذا كان ظلماً في الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً في إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً؛ لأنها أشركت بالله؛ وجعلت له شركاء في الألوهية؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجيء ، أو أمر الله حين يأتي؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى؛ وهي غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها في كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام .

إذن : فهي قرى تقع على طريق مسلوكة؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها :

{ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ } [الحجر : 76] .

أي : بطريق تمرون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح .

بل هي طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون في رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا في كل مرور لقطة وعبرة؛ حتى لا تقعوا في ظلم آخر .

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله :

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء : 128130] .

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهي خاوية ، وكان من الواجب معشر قريش ألا تبالغوا في الظلم ، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى .

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم ايضاً كفروا بشكر النعمة ، وظلموا؛ لأن الله سبحانه هو الذي أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التي تأتي بالزيادة لقريش؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التي يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش في قوله سبحانه :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ

* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 15] .

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام وهو رمز السيادة لو هدم وتحوَّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك؟

تأتي الإجابة في السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه في سورة قريش :

{ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إلافهم رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 14] .

إذن : كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهي سر معاشهم إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ } [هود : 83] .

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحيَّون في اللغة يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة في اللغة ، ويقولون : كيف يقول الله :

{ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ } [هود : 83] .

وكلمة « ما هي » مؤنثة ، وتقتضي أن يقول : « بعيدة » بدلاً من كلمة « بعيد » ، أي : أن يكون القول : « وما هي من الظالمين ببعيدة » ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة؛ لأن « فعيل » إن جاءت بمعنى « مفعول » ، فهنا يستوي المذكر والمؤنث .

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

{ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم : 4] .

وقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين } [الأعراف : 56] .

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التي جاء بها الله في هذه السورة لموكب الرسل ، فيأتي بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه : { وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً }

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84)

و « مدين » هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً؛ لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا } [يوسف : 82] .

والمقصود « أسأل أهل القرية » .

إذن : فمرة يطلب الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين .

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى : 13] .

إذن : فقمة الدين قي قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية « افعل » و « لا تفعل » فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذي لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أي حكم .

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفي في القرآن مُصَدَّراً بقوله تعالى :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ } [البقرة : 178] .

سواء أكان الأمر صياماً ، أم قصاصاً ، ففي كل تكليف يُصدَّر بهذا القول ، لا بد أن يأتي المعنى : يا من آمنت بي إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع مني التكليف .

ولذلك أقول دائماً :

إن علة كل تكليف هي الإيمان بالمكلِّف ، ولا داعي للبحث عن علة أخرى .

فمثلاً حيث يُقَال : إن علة الوضوء النظافة ، نقول : وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا في التيمم .

إذن : فالمقصد هو أن نتهيأ للصلاة بأي شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى .

وإياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى .
وكذلك كل شيء يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف؟
لقد طبَّق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم في القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه .

وهنا يقول الحق سبحانه :
{ وإِلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [هود : 84] .
وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية التي يقوم عليها الإسلام؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلتْ صنعة من صانع فعلى ولي الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .
وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :
{ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [هود : 84] .
أي : إياك أن تأخذ حكماً تكليفياً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .
وإياك أن تستدرك من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم نفسك وتقول : « لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنأتي لأنفسنا بحكم جديد » .
إياك أن تستدرك حكماً على الله . افهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً محكماً فخذه ، وإنْ كان غير محكم بأن جاء مجملاً ، أو غير مبيَّن ، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل .
ولذلك « نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال : » كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم « .
وبعد أن دعا شعيب عليه السلام آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده ، وهذا هو الأمر المشترك

بين جميع الرسل عليه السلام تأتي الأحكام الأخرى ، فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .
لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة؛ فقد يوجد عيب وآفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر .
وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم جاء وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين جاء صلى الله عليه وسلم والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيماني ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل .
وكانت خيبة آل مدين هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيسة التطفيف في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :
{ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إِنِي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ } [هود : 84] .
وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون ، لأنه لو شاء لقال : « ولا تنقصوا المكيل أو الموزون » هذا إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .
إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً .
والكيل كما نعرف هو تعديل شيء بشيء ، فإن كان في الخفة والثقل؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شيء بشيء في الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور في الكيل والميزان ، وأي تعديل شيء بشيء يحتاج إلى ما يناسبه؛ فالقماش مثلاً يتم تعديله بالمتر ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة؛ أي : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعني قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم في الآخر .
إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .
لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمرأ أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر؛ لَزهدَ من أكلتْ حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطي للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطىء في العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .
ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .
وعلينا أن نترك صاحب الطموح ليعمل؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكنزه؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم حتى وإن كان لا يفكر في ذلك فالذي يبني عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء دون أن يقصد وسينتفع العامل الفقير دون أن يقصد صاحب العمل وربما انتفع كل الفقراء مما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل .

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه؛ مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .
وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه؛ لأن الذي يؤثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد آثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى .
وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهي النفعية التي يعاملنا بها الله سبحانه؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع في المجتمع .
وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها عرفنا أن شعيباً قال لأهل مدين :
{ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إِنِي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ } [هود : 84] .
أي : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذي عندكم ، وليأخذ كل ذي حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس؛ فالذي يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش في الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره في الأصناف الأخرى التي تلزمه لحياته .
وإن اشتغل واحد في إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك في كل ما يخص حياته؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقي مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذي يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير؟
ثم يقول محذراً :
{ وإِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ } [هود : 84] .
لانك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ،

وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشتري ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشتري فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد يحاول المشتري أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء؛ لأن الانتفاع بأي شيء مهما كَثُر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذي يغش ويخدع إنما يُعرِّض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلِّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهي في آخرة غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذَّب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تحتال في النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين : { وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط }

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)

وفي الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان } [هود : 84] .

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص في الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

{ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين : 13] .

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزِنْ أنت لنفسك أو كِلْ أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقك؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفي مثل هذا بؤس للاثنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

{ وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط } [هود : 85] .

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

{ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ } [هود : 85] .

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكيل أو موزون ، فقد يأتي مشترٍ ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطف ما ليس حقّاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعني : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعني أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجري ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختلسه ، والمرتشي هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ } [هود : 85] .

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ .

وكلمة « أشياء » مفردها : « شيء » ، ويقولون عن الشيء : « جنس الأجناس » فالثمرة يقال لها : « شيء » ، وكل الثمر يقال له : « شيء » .

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أي شيء مهما كان قليلاً .

ونحن نلحظ هنا أن كلمة « الناس » جمع ، وكلمة « أشياءهم » جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة آحاداً . أي : لا تبخس الفرد شيئاً ، وإنْ قَلَّ .

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطيَّة من خان ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذي يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها ، فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود؛ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصِلَ بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقي مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس في ذلك الزمان يجففون الحبر الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار ، ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوِّمه فقال صاحب الجدار : والله لِورَعِك لا أقوِّم ، أي : أنه قد تسامح في هذا الأمر .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [هود : 85] .

وكلمة عثا ، يَعْثي ، ويعثوا ، وعثى . يعثي؛ كلها تعني : زاول فساداً ، أي : أن يعمد الإنسان إلى الصالح في ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح في ذاته عن صلاحه .

والمجتمع كله بكل فرد فيه مأمور بعدم مزاولة الفساد ، ولو طبَّق كل واحدٍ ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ }

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86)

أي : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : « فلان هذا إنما يحيا في بركة » ، أي : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربي أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنيّاً من غير حلال ، لكنه يحيا في ضنك العيش .

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفي ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جَرَّأ عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً .

وقول الحق سبحانه :

{ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ } [هود : 86] .

أي : أن الله تعالى يُذهِب عمن يراعي حقوق غيره مصارف السوء .

وسبق أن قلنا قديماً : فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب؛ لأن الناس في غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذي جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذي يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء .

ومن يُربُّون أولادهم من سُحْت أو حرام ، لا يبارك الله فيهم؛ لأن هناك في تكوينهم شيئاً حراماً . فنجد على سبيل المثال ابن المرتشي يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح . أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أي شيء ، بل تطمع في المزيد دائماً ، بينما يعطي الله سبحانه من يرعى حقوق

الناس زوجة تقدر كل ما يفعله .

يقول الحق سبحانه :

{ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [هود : 86] .

أي : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيُّوم؛ فلا تأخذ حقّاً غير حقك؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [هود : 86] .

أي : أن شعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين : أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

{ بَقِيَّةُ الله } [هود : 86] .

أي : أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة .

وهذه هي فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهي عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعي؛ لأن عين القانون الوضعي قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .

. أما القانون الإلهي فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

{ وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إِنِي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [هود : 8486] .

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة في المجتمع كله ، والمجتمع إن لم تُصَنْ حركته يفسد؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه حركة تكاملية ، لا تكرار فيها؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضي أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس ليشفيهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجاري .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب؟

يقول الحق سبحانه : { قَالُواْ ياشعيب أصلاوتك تَأْمُرُكَ }

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)

أي : أيأمرك إلهك ودينك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟

ولقائل أن يقول : ولماذا قالوا : « أصلاتك »؟

نقول : لأن الإسلام بُنِيَ على خمس : أولها شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ ويكفي أن يقولها الإنسان مرة واحدة في حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكّي به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة في حياته ، ولا يبقى في أركان الدين إلا الصلاة؛ ولذلك يقال عنها : « عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » لأنها الركن الوحيد الذي يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً في الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أي إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة؛ فله أن يصلي برموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فَلْيُجْرِ الصلاة على قلبه ، حتى في حالة الحرب والمسايفة فالإنسان المسلم يصلي صلاة الخوف .

إذن : فالصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً ، ويُكرَّر في اليوم خمس مرات ، وقد أعطاها الحق سبحانه في التشريع ما يناسبها من الأهمية .

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحي من الله سبحانه وتعالى ، فجبريل عليه السلام يحمل الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ويبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم إياه ، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء وجوده في الملأ الأعلى؛ عند سدرة المنتهى ، وذلك لفرط أهميتها .

ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى نجد الرئيس في أي موقع من مواقع العمل؛ وهو يستقبل البريد اليومي المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقترح بخصوصه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهمّاً قادماً من أعلى المستويات؛ فهو يستدعي الموظف المختص؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها؛ وإذا كان هذا يحدث في الأمور البشرية ، فما بالنا بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة لأهميته هو التكليف الوحيد الذي نال تلك المنزلة؛ لأنها الركن الذي يتكرر خمس مرات في اليوم الواحد؛ ولا مناص منه .

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحِّي ببعض المال؛ وأنت لم تولد ومعك المال؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت في بطن أمك؛ ولا بد أن تزكّي من مالك؛ والمال لا يأتي إلا من العمل؛ والعمل فرع من الوقت؛ وأنت في الصلاة تضحِّي بالوقت نفسه؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج؛ من الفجر إلى المغرب؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة؛ أما في الصلاة فأنت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك في الصيام .

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام .

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

{ أصلاوتك تَأْمُرُكَ } [هود : 87] .

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة؛ وهم ككفار قريش يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :

{ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر } [العنكبوت : 45] .

إذن : فللصلاة أمر ، وللصلاة نهي ، وما دام قد ثبت لشيء حكم؛ يثبت له مقابله ، وأنت تسمع من يقول لآخر : أنت تصلي لذلك فأنا أثق في أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله : كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة؟

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل في الجهات إنما يحل مشاكل متعددة؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى .

ولذلك أقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير .

ومثال آخر : نجده في قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون :

{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض } [الدخان : 29] .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكي على قوم آخرين؛ لأن السموات والأرض من المسخّرات للتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا } [الأحزاب : 72] .

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبِّحة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } [الإسراء : 44] .

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسبِّحاً؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ، معانداً؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبكِ على قوم فرعون؛ فذلك لأنهم ضالون؛ لأنها لا تبكي إلا على المهديين .

وقد حلَّ لنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هذه المسألة؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الأرض ، وموضع في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض؛ فمصلاّه ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله » .

لأن موضعه الذي كان يصلي فيه؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلي فيه ، وأما موضعه الذي كان يصعد منه عمله؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين؛ وهي رمز الدين؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهي الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم؛ وتساءلوا :

{ أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ } [هود : 87] .

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألاّ يعبدوا غير الله؛ فلا إله غيره؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألاّ ينقصوا الكيل والميزان؛ وألاّ يبخسوا الناس أشياءهم؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم ، وألا يعثوا في الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون؛ فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون؛ وستصطدم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : { إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد } [هود : 87] .

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

{ أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ } [هود : 87] .

مثلهم في ذلك مثل منافقي المدينة الذين قالوا للأنصار :

{ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ } [المنافقون : 7] .

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ وقد قالوا : { رَسُولِ الله } تهكماً؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم أيضاً مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفحشاء؛ فقالوا تهكماً منه وممن آمن معه :

{ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [الأعراف : 82] .

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : « لا تستعن بفلان لأنه حنبلي » .

هم إذن قد قالوا :

{ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد } [هود : 87] .

وهذا منطق السخرية منه؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان؛ ونهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم .

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حقٌّ؛ ويقوله من لا يؤمن به؛ فهو يقصد به الهُزْء والسخرية .

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى في الدنيا؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة :

{ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه } [الكهف : 29] .

وفي كُلٍّ من القولين تهكم وسخرية ، وكذلك قولهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ أصلاوتك تَأْمُرُكَ } [هود : 87] .

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

{ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد } [هود : 87] .

يعني التساؤل : كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تتورط وتقول لنا :

{ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [هود : 84] .

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف في المال ، والعلة التي برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد؛ فيكف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم؟

ويأتي الحق سبحانه بما قاله شعيب عليه السلام فيقول جَلَّ شأنه : { قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي }

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

وهنا يعلن لهم شعيب عليه السلام أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد؛ فامور حياته ميسورة .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

{ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } [هود : 88] .

أي : أنني أطبق ما أدعوكم إليه على نفسي؛ فلا أنقص كيلاً أو أخْسِر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه؛ لأني لا أعبد غير الله .

وكلمة « أخالف » تدل على اتجاهين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت؛ تكون قد خالفته « إلى » كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت؛ تكون قد خالفته « عن » كذا .

فشعيب عليه السلام يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال؛ ليفعلها هو؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة .

وشعيب عليه السلام لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً؛ فليس في نقص الكيل والميزان؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب عليه السلام مهمة النبوة؛ فيقول :

{ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح مَا استطعت } [هود : 88] .

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم الفساد ، ويأتي النبي المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم؛ من خلال « افعل » و « لا تفعل » ويكون النبي المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنَجْوةٍ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

{ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح مَا استطعت } [هود : 88] .

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وما يدخل في طوعها .

ويقول شعيب عليه السلام بعد ذلك :

{ وَمَا توفيقي إِلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود : 88] .

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل؛ وبين التوفيق في العمل؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله .

أما إن أقبلت على العمل؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أيَّ خطأ تقع فيه؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت « على الله توكلت وعليك »؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله .

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

{ تَوَكَّلْتُ عَلَى الله } [هود : 56] .

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين : « اللهم إني أستغفرك من كل عملٍ قصدتُ به وجهك فخالفني فيه ما ليس لك » .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى؛ لأنك إليه تنيب؛ وترجع؛ كما قال شعيب عليه السلام : { وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : { وياقوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شقاقي }

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89)

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تُجرموا جُرْماً؛ يكون سبباً في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم الذين سبقوكم؛ من الذين خالفوا رسلهم؛ فأنزل الله عز وجل عليهم العذاب كالغرق ، و الرجفة ، والصيحة ، والصاعقة ، فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكنون له العداء؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدوها آباءهم؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم؛ وسبق أن عذَّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة؛ ويذكرهم شعيب عليه السلام بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ }

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي حتى المُصِرّ على شيء من المعصية باب التوبة .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا .

لا بد إذن أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام لقومه :

{ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ } [هود : 90] .

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية؛ وتتوبون إليه؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه : { إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [هود : 90] لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفته « الودود »؛ وهي من الود؛ والود هو الحب؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى : نرى الأم ولها ولدان : أولهما قادر ثري يأتي لها بما تريد؛ وثانيهما ضعيف فقير؛ فنجد قلب الأم دائماً مع هذا الضعيف الفقير؛ وتحَنِّن قلب القويّ القادر على الفقير الضعيف .

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على من سألها : أي أبنائك أحب إليك؟ فتقول : الصغير حتى يكبر؛ والغائب حتى يعود؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

« يا بن آدم؛ لا تَخَافنَّ من ذي سلطان؛ ما دام سلطاني باقياً؛ وسلطاني لا ينفد أبداً . يا بن آدم لا تَخْشَ من ضيق رزق؛ وخزائني ملآنة ، وخزائني لا تنفد أبداً . يا بن آدم خلقتك للعبادة؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فَوَعِزَّتي وجلالي إن رضيت بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك؛ وكنتَ عندي محموداً؛ وإن أنت لم ترض بما قسمتُه لك؛ فوعزتي وجلالي لأسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحوش في البرية؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا بن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْيَ بخلقهنَّ؛ أيعييني رغيف عيش أسوقه لك؟ يا بن آدم لا تسألني رزق غد كما أطلب منك عمل غدٍ . يا بن آدم أنا لك مُحِبٌّ؛ فبحقي عليك كنْ لي مُحِبّاً » .

وهذا الحديث الكريم يبيّن مدى مودة الله سبحانه لخلقه؛ تلك المودة التي لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقول أهل مدين رَدّاً على شعيب عليه السلام : { قَالُواْ ياشعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيراً }

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91)

وهذا يُظاهي قول مشركي قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا :
{ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت : 5] .
والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل؛ ليُحسن استقباله؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل ، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب .
ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .
ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر؛ بل هددوا شعيباً وقالوا :
{ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود : 91] .
وهذا التهديد يحمل تحدّياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به؛ لأنهم يبغضون حياته؛ وأعلنوا حجة واهية؛ وهي أن رهطه أي : قومه وأهله؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد ما زالوا على عبادة الأصنام؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعيباً؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعيباً عليه السلام لا بد أن يحميه ، وهم بتناسيهم هذا حققوا مشيئة الله عز وجل بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان .
ومثال ذلك : هو بقاء عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب على دين قومه؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد صلى الله عليه وسلم في ظاهر الأسباب
ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك بردِّ شعيب عليه السلام على قومه؛ فيقول : { قَالَ ياقوم أرهطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ الله }

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رهطي في كفة؛ ومعزَّة الله تعالى في كفة؟ وغلَّبتم خوفكم من رهطي على خوفكم من الله؟! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه؛ لأنه أعلن من قبل توكله على الله؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً .
ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله؛ بل طرحوا التفكير في الإيمان بالله وراء

ظهورهم؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم :

{ واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً } [هود : 92] .

أي : لم يجعلوا الله سبحانه أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله؛ ولا بحماية الله؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله .

ولم يقل : (ظِهْرِيًّا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول : يمنيّ . ونقول : يمانيّ ، فالنسب هنا إلى الظهري ، وهي المنسي والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعني جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن : فهناك تغييرات تحدث في باب النسب .

ويذكِّرهم شعيب عليه السلام بقوله :

{ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [هود : 92] .

أي : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل في نطاق العمل؛ فكلُّ حدث يقال لهم : « عمل »؛ وعمل اللسان هو القول؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : { وياقوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ }

وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما في وُسْعكم ، وما في مُكْنتكم هو ما في مُكْنة البشر ، وسأعمل ما في مُكْنتي ، ولست وحدي ، بل معي الله سبحانه وتعالى؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذي أدعوكم إليه؛ فلن يخذلني الذي أرسلني؛ وما دمتم تريدون الوقوف في نفس موقف الأمم السابقة التي تصدت لموجات الإصلاح السماوية؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر ، وبالقذف بأي شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أني أتودد إليكم؛ فأنا على بينة من ربي ، ولكني أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله ردّاً على قولهم :

{ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } [هود : 91] .

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

{ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ } [هود : 93] .

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأني سأعمل على مكانتي ، و { سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وارتقبوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } [هود : 93] .

أي : أن المستقبل سوف يبيّن مَنْ مِنَّا على الحق ومَنْ مِنَّا على الضلال ، ولم سيكون النصر والغلبة ، ومن الذي يأتيه الخزي؛ أي : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها؛ ويعاني من الفضيحة أمام الخلق؛ ومَنْ مِنَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتي الآية التالية : { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ }

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94)

ونلحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبين منطوقين أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 94] ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 66] .

في قصة اثنين من الرسل .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } ولم يأت ب « الفاء » لأنها كما نعلم تقتضي التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية؛ وتسمى في اللغة « فاء التعقيب » ، مثل قول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ } [عبس : 21] .

أما « ثم » فتأتي لتعقيب مختلف؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ } [عبس : 22] .

وقد جاءت « الفاء » مرة في قصة قوم لوط؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذي ينزل فيه العذاب ، وقال :

{ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ } [هود : 81] .

فكان لا بد أن تسبق « الفاء » هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

{ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ } [هود : 82] .

أما هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ } [هود : 94] .

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 94] .

وكل أمر يقتضي آمراً؛ ويقتضي مأموراً؛ ويقتضي مأموراً به .

والآمر هنا هو الله سبحانه؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ، ولا يجرؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه .

إذن : فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجرؤ العذاب على المخالفة لأنه مُسخَّر ، لا اختيار له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ يُطِّبقه؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لهذا في قصة أم موسى . . يقول جَلَّ شأنه :

{ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] .

فمنطق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خِفْتِ على ابنك ألقيه في البحر؟ كيف ننجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتي لها معارض في الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها في اليم ، فقال :

{ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم } [طه : 3839] .

كذلك أمر الحق سبحانه وتعالى اليمَّ بإلقاء التابوت ، وفي داخله موسى للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى في أن أوامر الله لا تتخلف ، جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُرَبِّبَ الإيمان ، أي : يزيده في قلوب عباده ، فَهَبْ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173] .

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غُلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلَّف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة؟ إذن : فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتقي القضيتان : القرآنية والكونية؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمَّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة؛ وقال :

{ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 94] .

وسمَّى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم : « الرجفة »؛ فقال :

{ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [الأعراف : 91] .

وسماه في قصة قوم عاد :

{ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6] .

وسمَّاه بالخسف في عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان ينتقي القوم الكافرين فقط؛ ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

{ نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ } [هود : 94] .

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة « نجينا » : من النجاة؛ أي : أن يوجد بنجوة؛ وهي المكان العالي ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء؛ فقد كانوا يقيمون في اليمن ثم بعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العرم وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ } [سبأ : 1516] .

هكذا تفرق العرب من اليمن؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء رغم أنه سر الحياة؛ وفضَّلوا التعب في البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعامهم؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة « نجا » أي : صعد إلى مكان مرتفع .

واستخدمت كلمة « نجا » في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم ، فيقال : « نجا من النار »؛ « ونجا من العدو »؛ « ونجا من الحيوان المفترس »؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي : المكان المرتفع . ويقال في الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب .

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى مَنْ يُنجيه ، ويُقال : « أنجاه » ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليتحقق الفوز .

ونسب الفعل فيها إلى الله؛ فقال « نجينا » .

ويأتي الحق سبحانه في مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر } [القدر : 1] .

فكل شيء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتي الله فيه بضمير الجمع : إنَّا .

أما إذا كان الشيء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتي بضمير الإفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

{ إنني أَنَا الله } [طه : 14] .

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه :

{ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ } [هود : 93] .

وكان عمل شعيب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجَّه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أي عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . . والمفتاح في يد العبد؛ لأن الحق سبحانه قد قال في الحديث القدسي :

« من ذكرني في نفسه ذكرته في ملأ خير منه » .

إذن : فالمفتاح في يد العبد .

والحق سبحانه هو القائل :

« ومن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً » .

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرَّب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

« ومن جاءني يمشي أتيته هرولة » لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً؛ لأنه مُنزَّهٌ عن ذلك .

إذن : فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الالتحام بمعية الله تعالى ، ليضفي علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار . . يقول الحق سبحانه :

{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا }

[التوبة : 40] .

أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه ، بل من قانونٍ كوني ، حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن القانون الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ » .

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء .

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله؛ فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

{ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة } [هود : 67] .

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه :

{ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ } [هود : 94] .

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعْلي قريشاً؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطي لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة ياتي بتاء التأنيث ومرة لا يأتي بها .

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً أو مجازياً . والتأنيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة .

والتأنيث المجازي مثل : « الصيحة » و « الحجرة » . وكانت القبائل العربية تتجاوز في المؤنث المجازي؛ فمرة تأتي « التاء » ومرة لا تأتي .

وإن كان هناك فَصْل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

{ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة } [هود : 67] .

فكأن الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

{ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 94] .

ونلحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

{ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ } [هود : 81] .

ومثل قوله الحق :

{ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين } [الصافات : 177] .

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذي لم يغادره النوم بعد ، مثل زُوَّار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

{ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 94] .

ولم يقل سبحانه : « فأصبحوا في دارهم جاثمين »؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم ينزل عليه الحجر في مكة؛ لأن الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الآمن ، وكأن الحجر قد تتَّبعه ، مثلما تتبعت الصيحة الكفار من أهل مدين .

ونلحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي « جاثمين » أن حرفي « الجيم » و « الثاء » حين يجتمعان معاً بصرف النظر عن الحرف الثالث ، ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الغنائية . ومعنى « جاثمين » أي : مُلقَون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

{ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً } [الجاثية : 28] .

أي : يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : « الجثة » .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ « الجثة » تعبيراً عن أي « ميت » عظيماً كان أم وضيعاً ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى؛ الأرض .

ومن يرغب في تهدئة إنسان ملتاع وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيَقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل « مدين » : { كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ }

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

أي : أن من يمر على أهل « مدين » بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

{ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا } [يونس : 24] .

فالإنسان الذي ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك في لمح البصر .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ } [هود : 95] .

ومادة « الغنى » منها : الغناء بكسر الغين وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء بفتح الغين وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفي عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يعجبه ، والملحَّن بطريقة تعجبه؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغَناء ، أي : الإقامة في مكان إقامةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن في هذا المكان الذي يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

{ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ } [هود : 95] .

أي : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أي مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن الكريم :

{ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ } [هود : 100] .

أي : أن الأطلال قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر مُلْقىً على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآني بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [هود : 95] .

وكلمة « ألا » كما عرفنا من قبل هي « أداة استفتاح » ليلتفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذي يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة « بُعْداً » ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة « بُعْداً » هي : « الباء » و « العين » و « الدال » وتستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، إما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها : { كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [هود : 95] .

وهي تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

والشاعر يقول :

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَني ... وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانِيَا

فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود .

ولما خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين : « ألا بعداً »؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب .

وتنتهي هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلحظ أن لها مساساً برسلٍ مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام .

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أي : أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام . وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كرسولٍ خاتمٍ ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم .

أما تعدد الرسل اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تثبيت للفؤاد .

ويبيّن الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين :

اللقطة الأولى : هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية : هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود * وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة بِئْسَ الرفد المرفود } [هود : 9899] .

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله :

{ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين } [القصص : 25] .

وهكذا ثبَّته وهيَّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثماني حجج أو أن يتمها عشر حجج ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ قَالَ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [القصص : 2728] .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام .

ومن هذا ومن ذلك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقي مع قانون السماء؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة .

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدي العقل إلى تلك النتائج؟

لا؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي يقي الإنسان شر التجربة؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له ، رغم أن فرعون كان يُقتِّل أطفال تلك الطائفة .

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه .

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

إذا لَمْ تُصادِفْ في بَنِيكَ عِنَايةً ... مِنَ اللهِ فقدْ كَذبَ الرَّاجِي وخَابَ المأملُ

فَمُوسَى الذي رَبَّاهُ جِبريلُ كافرٌ ... ومُوسَى الذي ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية؛ ليبيّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولي العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام ،

وكان مقصود موسى عليه السلام قبل أن يبعث هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين الرجل والمرأة وهي رأس الحربة التي تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة في مفاتنها ، لإغواء الشباب في أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى :

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ } [القصص : 23] .

أي : تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية؟! وقال القرآن السؤال الطبيعي :

{ مَا خَطْبُكُمَا } [القصص : 23] .

فتأتيه الإجابة من المرأتين :

{ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص : 23] .

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقي الرعاة ، بل ظلَّتا محتجبتين بعيداً؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل :

{ فسقى لَهُمَا } [القصص : 24] .

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قربى ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضي الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام 1950م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزلٍ ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى نفس الباب . وقال لي : إن هذه هي عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعني أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

{ فسقى لَهُمَا } [القصص : 24] .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التي تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

{ ياأبت استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين } [القصص : 26] .

ويُنهي شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

{ قَالَ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ } [القصص : 27] .

وهكذا يعلم موسى عليه السلام أن شعيباً لا يُلقي بابنته هكذا دون مهر ، لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه .

وهذه القصة وضعت لنا مبادىء تحل كل المشكلات التي يتشدق بها خصوم الإسلام .

وهنا نحن نجد في الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم .

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا }

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96)

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت وربت ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة ، وشفاء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبيّن مطلوبات المنهج ب « افعل » و « لا تفعل » .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [هود : 96] .

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب؛ لذلك قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 34] .

إذن : فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه . لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه :

{ وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ } [الأعراف : 104105] .

فيرد عليه فرعون :

{ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ } [الأعراف : 106108] .

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بدليل الاحتياط في قوله تعالى :

{ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء } [طه : 22] .

أما العصا فهي الحجة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام فرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى عليه السلام بتسع آيات هي : العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص

في الأنفس والثمرات ، لأن الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هي الآيات التسع التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم إيمانهم برسالة موسى عليه السلام .

وهناك آيات آخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى عليه السلام؛ هي نتق الجبل ، وضرب البحر بالعصا ، ثم ضرب الحجر بالعصا لتتفجر اثنتا عشرة عيناً ، وكذلك نزول التوراة في ألواح .

إذن : فالكلام في الآيات التسع المقصود بها الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بني إسرائيل .

ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا في آخر السورة بالخلاف بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ } [هود : 110] .

إذن : فقصته مع بني إسرائيل تأتي بعد إيتائه الكتاب ، أي : التوراة .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى عليه السلام مع فرعون فيقول :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [هود : 96] .

أي : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاكاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ }

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)

والملأ : هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس . ويقال : « فلان ملء العين » أي : لا تقتحمه العيون؛ لأنه واضح ظاهر .

فالملأ إذن هم أشراف القوم ، وهم عادة الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

{ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } [الزخرف : 54] .

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملأ والقوم ، نجده يبيّن ويفصل بين الملأ من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملأ من جهة ، والقوم من جهة أخرى .

. فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبيّن لنا الله سبحانه أن الملأ قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذي يصفه الحق سبحانه

بقوله :

{ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [هود : 97] .

والرشد يقابله الغيُّ ، وهذا القول يدلنا على أن الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبيّن الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة }

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98)

وكلمة « يقدم » هي من مادة « القاف » و « الدال » و « الميم » . وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال : « قدم فلان » دليل إقباله عليك مواجهة . وإذا قيل : « أقبل فلان » فهذا يعني الإقبال بشيءٍ من العزم . و « قدم القوم يقدمهم » أي : أنهم يتقدمون في اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم .

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، وما داموا قد اتَّبعوه في الأولى؛ فلا بد أن يتبعوه في الآخرة .

ويأتي القرآن بآيات ويُبيّنها ، مثل قول الحق سبحانه :

{ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً } [مريم : 6870] .

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه في النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يَصْلَى السعير .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً } [مريم : 7172] .

ولم يقل الحق سبحانه : « وإنْ منهم إلاّ واردُها » .

وإنما قال : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } [مريم : 71] .

وبذلك عمَّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

{ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] .

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن « الورود » ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين ، نجد أن الورود يأتي بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : « وردَ يردُ وروداً » ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : « وردَ يردُ وِرْداً » بدليل أن الحق سبحانه يقول

هنا :

{ وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] .

أي : إنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن : فكلمة « الوِرْد » تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الورادين مثل قوله :

{ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً } [مريم : 86] .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته :

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ الُمَتَخيّمِ

والشاعر هنا يصف الرَّكْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يُكدِّرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

{ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] .

ويقول الشاعر :

فألقتْ عصَاها واستقرَّ بها النَّوَى ... كمَا قَرَّ عيناً بالإياب المُسَافرُ

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعني أنها مياه غير مكدَّرة .

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتنعكس عليها صورة السماء الزرقاء .

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافي وتوقفوا وأقاموا في المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعني الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعاني من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] .

وفي هذا تهكم شديد ، لأنهم قوم فرعون ساعة يرون الماء يشعرون بقرب ري الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس ما يشربون ، فهو يُطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .

كما في قوله سبحانه :

{ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه } [الكهف : 29] .

فهم ساعة يسمعون كلمة « يغاثوا » يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء

كالمهل يشوي الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت تجد من يدعوك لأطايب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلح عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط الحلوى بنبات « الشطة » فيلتهب جوفك؛ أليس في هذا تهكم شديد؟!

والحق سبحانه يبيّن لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن أكبادهم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذي يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

{ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ } [الحاقة : 36] .

وهكذا تصير النكبة نكبتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

{ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } [مريم : 71] .

بمعنأهم جميعاً سوف يَردون جهنم .

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

{ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً } [مريم : 70] .

إذن : فالحق سبحانه يعطي لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون النار وتسعُّرها ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة }

وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

أي : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهي لعنة يوم القيامة : { بِئْسَ الرفد المرفود } [هود : 99] والرفد : هو الغطاء ، فهل تعد اللعنة في الآخرة عطاءً؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

{ وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى }

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100)

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب؛ لأنها كذَّبت أنبياءها . والخطاب موجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبيّن له أن الكافرين لن يكونوا بمنجىً من العذاب؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

{ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ } [هود : 100] .

يتطلب أن نفرّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحبكة .

ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة « القصة » في اللغة العربية ، لأنها تعني في لغتنا الالتزام الحرفي بما كان فيها من أحداث ، فهي مأخوذة من كلمة : « قصّ الأثر » ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن : فقصص القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه من عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمَّى لغوياً بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً .

وقصص الإهلاك للأمم التي كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التي اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر .

ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

{ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الصافات : 137138] .

أي : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم .

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظلموا أَنفُسَهُمْ }

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101)

ويبيّن الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسانٍ الحق ، فتسلبه هذا الحق .

وفي واقع الأمر أن تلك الأمم التي كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هي التي ظلمت نفسها بالشرك ، وكذَّبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفي يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم

أحداً .

وهم حين أشركوا بالله تعالى آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي مَنْ آمنوا بها؟!

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

{ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة } [البقرة : 24] .

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنَّوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذي عبدوه أو تلك الأحجار التي صلَّوا لها أو قدَّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور وكلامها من الأحجار فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغار ثور حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِراءً حينَ يَرى الرُّوحَ ... أميناً يَغْزُوكَ بالأنْوَارِ

فَحِرَاءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بِهما تَشفَّعْ لأمَّةِ الأحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار :

عَبَدُونا ونَحْنُ أعْبَدُ للهِ ... مِنَ القائِمينَ بالأسْحَارِ

قَدْ تَجنَّوا جَهْلاً كمَا قَدْ تَجَنَّوا ... علَى ابنِ مَرْيَمَ والحوَارِي

لِلمُغَالِي جَزَاؤهُ والمُغَالَى فيهِ ... تُنْجِيهِ رَحْمَةُ الغَفَّارِ

وهكذا لا تُغني عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ، لم تُغنِ عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذي تلقوه عقاباً في الدنيا وسعيراً في الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله في الدنيا ، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود : 101] .

أي : أن تخلّي تلك الآلهة التي أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من دون الله . . هذا التخلي يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبيب هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول :

{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد : 1] .

كذلك الأخذ الذي أخذ الله به القرى التي كذَّبت أنبياءها .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ }

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)

أي : أن الأخذ الذي أخذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حي لكل من يكفر .

والحق سبحانه يقول :

{ والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * واليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ } [الفجر : 15] .

أي : أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقلٍ يستوعب ضرورة الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول سبحانه :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 614] .

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر .

وقوله سبحانه هنا :

{ وكذلك } [هود : 102] .

أي : مثل الأخذ الذي أخِذَتْ به القرى التي كذَّبت رسلها ، فظلمت نفسها .

والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أنجى شعيباً عليه السلام وأخذ قومه بسبب ظلمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذي يستحق العقاب .

ومثال ذلك : نجده في قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه :

{ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود : 46] .

فالذي وضع ابن نوح في هذا الموضع هو أن عمله غير صالح؛ لذلك فلا يقولن نوح : إنه ابني . فليس الإهلاك بعلَّة الذات والدم والقرابة ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البنوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرَّم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال :

{ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124] .

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

{ وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124] .

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه :

{ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنوَّة للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ، وقال :

{ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات } [البقرة : 126] .

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

{ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } [البقرة : 126] .

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوي فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية وعطاء الألوهية؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

{ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير }

[البقرة : 126] .

فأنت يا إبراهيم دعوتَ برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعي الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوبية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخْذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالفٍ ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الآخذ هو الله سبحانه ، فهو أخْذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرِّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

{ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .

أي : أن أخذه موجع على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهَبْ أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [النحل : 126] .

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر في

قول الحق سبحانه :

{ والكاظمين الغيظ } [آل عمران : 134] .

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أي : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعي ، وإما أن ترتقي إلى الدرجة الأعلى وهي أن تعفو؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو .

ولذلك حين سألوا الحسن البصري : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه؟

أجاب : إذا أساء إليك عبد ، ألاَ يُغضب ذلك ربه منه؟ قالوا : نعم . قال : وحين يغضب الله من الذي أساء إليك؛ ألا يقف إلى جانبك؛ أفلا تُحسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين أنه سمع أن شخصاً اغتابه؛ فأهدى إليه مع خادمه طبقاً من بواكير الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً : لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك؟

قال العارف بالله : بَلِّغْهُ شكري وامتناني لأنه تصدَّق عليَّ بحسناته عندما اغتابني ، وحسناته بلا شك أنفَسُ من هذا الرطب .

ولذلك يقال : إن الذي يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذي يعاقب إنما يعاقب بقوته؛ والذي يعفو فهو الذي يترك العقاب لقوة الله تعالى ، وهي قوة لا متناهية .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

{ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .

أي : أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه؛ وهو أخذ شديد؛ لأن الشدة تعني : جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أي منهما عن الآخر .

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة }

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التي تخبر عن الذي حدث للأمم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل .

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة؛ ويعتبر بما جاء فيها؛ وينتفع بالخبرة التي جاءت منها؛ فهو صاحب بصيرة نافذة؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة .

ولذلك يقال : « إن لكل آية من مواليد؛ هي العبر بالآيات » ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

إذن : فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولي الألباب؛ فلا ندخل في دائرة من لا يخافون العذاب؛ أولئك الذي يتلقّون العذاب خزياً في الدنيا وجحيماً في الآخرة؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق .

لذلك قال الحق سبحانه :

{ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } [هود : 103] .

أي : أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر؛ من لدن آدم إلى آخر البشر؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان؛ وأمام من لا يعرفهم .

وقول الحق سبحانه :

{ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس } [هود : 103] .

وكلمة « مجموع » تقتضي وجود « جامع »؛ و « المجموع » يتناسب مع قدرة « الجامع »؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى .

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه؛ فالحق سبحانه يقول :

{ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار } [إبراهيم : 42] .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

{ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ } [الأنبياء : 97] .

وهنا يقول سبحانه :

{ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } [هود : 103] .

أي : أن الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزي لمن لم يعتبر بالآيات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك في ميعاد هذا اليوم . { وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ }

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة؛ لا يعني أنه لن يأتي؛ بل سوف يأتي لا محالة ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم في تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله .

وقول الحق سبحانه :

{ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ } [هود : 104] .

يتطلب أن نعرف أن كلمة « الأجل » تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته .

والحق سبحانه يقول :

{ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [الرعد : 38] .

وتطلق كلمة « الأجل » مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف : 34] .

ولنعرف جميعاً أن كل أجل وإن طال فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً؛ لذلك فَلْنقُلْ أن كل معدود قليل . ما دُمْنَا قادرين على إحصائه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

{ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ } [هود : 105] .

يعني : لا تتكلم أي نفس إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم أياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم .

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذي لا يستطيع الكلام؛ وتجد المشلول الذي لا يستطيع الحركة؛ وتجد الأعمى الذي لا يبصر ، وغير ذلك . .

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى؛ وليست مسألة ذاتية فيهم .

وقول الحق سبحانه :

{ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } [هود : 105] .

يبيّن لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا ، فهي ترضخ لإرادتنا؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح .

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى .

{ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً } [النبأ : 38] .

ويقول الحق عز وجل في آية أخرى :

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } [الصافات : 27] .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

{ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات : 3536] .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا } [النحل : 111] .

وفي موضع آخر يقول سبحانه :

{ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : 24] .

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام .

وأقول : يجب أن نفهم أن الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدي النافع ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذي لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض؛ وذكره لنا القرآن في قوله سبحانه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا } [فصلت : 29] .

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدي .

إذن : فالممنوع هو الكلام المجدي المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة؛ فوقت يتكلمون فيه؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون ، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم .

ويقسِّم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين ، كما في قوله تعالى في آخر الآية :

{ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } [هود : 105] .

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين : « شقي » و « سعيد »؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقي؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد .

ثم يبيّن لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا ، ومنازل مَنْ سُعِدوا؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه : { فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار }

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106)

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله؛ يجمعهم الشقاء؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَراً .

والحق سبحانه يقول :

{ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً } [الزمر : 71] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

{ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا } [الأعراف : 38] .

وهكذا نفهم أن الكافرين في الوصف الثابت أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة ، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي؛ ويعاني كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه؛ وبذلك يجتمعون في

الشقاء ويختلفون في نوع وكمية العذاب؛ كلٌّ حسب ذنوبه ، ولا يظلم ربك أحداً .
وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل « شقوا » ليبيّن لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء؛ وأتوا به لأنفسهم؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار؛ وأنزل لهم المنهج؛ ليصونوا أنفسهم؛ وأعان من اختار الإيمان على الطاعة .
ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم :
{ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ } [هود : 106] .
ونحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .
ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصْفَ ما يتلقاه أهل الشقاء في النار ، فيقول سبحانه : { خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض }

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107)

وكلمة « الخلود » تفيد المكث طويلاً؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له؛ وإذا أبّد فهو تأكيد للخلود .
والذين شقوا إنما يدخلون النار؛ بدءاً من لحظة :
{ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } [هود : 105] .
وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين .
وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك .
ولهذا قال الحق سبحانه :
{ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } [هود : 107] .
وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لأنصاف المؤمنين ، فالحق سبحانه { فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [هود : 107] ولا يحكمه أي شيء .
وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه؛ فالقدر فِعْلُه ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عمَّا يفعل؛ لأن ذات الله هي الفاعلة؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاصٍ في النار؛ فالنقص يكون في النهاية؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفي عقابه .
وبهذا التصور ينتهي الإشكال الذي اختلف حوله مائة وخمسون عالماً؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يغلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأي إنما يُسوّي بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رأيه بالآية الكريمة التي جاءت في سورة الجن ، والتي يقول فيها الحق سبحانه :

{ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ الله وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } [الجن : 23] .

فنحن نقول : إن الحق سبحانه يرِبّب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود في العذاب لم يرد إلا في آيتين ، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسِعَة عفوه سبحانه .

ولذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه رحمة الله للعالمين؛ وكلمة « العالمين » جمع « عالَم » والعالَم هو ما سِوى الله تعالى .

ولذلك هناك رحمة للكافر؛ هي عطاء الله له في الدنيا .

وهكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك نواميس الكون ، ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام القدر هو فعله سبحانه؛ فهو يغيّر فيه كما يشاء .

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة ، وما دام هو رب كل شيء فإنه فعال لما يريد ، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته .

وقول الحق سبحانه :

{ مَا دَامَتِ السموات والأرض } [هود : 107] .

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظللهما ، ولا بد أن يوجدا فوق أرض ما .

وإذا قال قائل : إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السماء سوف تمور وتنفطر .

نقول رداً عليه : لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة مثيلاتها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات } [إبراهيم : 48] .

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة :

{ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ } [الزمر : 74] .

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار .

ومن العجيب أن الإنسان المخدوم بالمادة الجامدة؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخَّرة لخدمته؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر .

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة؛ فكأنه سبحانه يعطي الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار؛ ولذلك قال سبحانه :

{ مَا دَامَتِ السموات والأرض } [هود : 107] .

وإذا علَّق الله سبحانه شيئاً على شيء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق .

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى :

{ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط } [الأعراف : 40] .

فهل سيلج الجمل في سَمِّ الخِياط؟ إن ذلك محال .

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات في نطاق أنه سبحانه :

{ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [هود : 107] .

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام :

{ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } [المائدة : 118] .

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم .

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا؟ ولِمَ ترك هذا؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم في أي أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة .

لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التي تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة .

ففي تعذيب الكافرين قال سبحانه : { فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [هود : 107] .

وفي الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه : { وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة }

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)

فالحق سبحانه يعطي المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم في الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء }

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مرية؟

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم في شك؟

لا ، ولكنه قول الآمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في صدد هذا الأمر؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام .

مثلما قال الحق سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم :

{ أَقِمِ الصلاة } [الإسراء : 78] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع .

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم :

{ ياأيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين } [الأحزاب : 1] .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتقي الله؟

نقول : لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام ، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر ، وهو خطاب للرسول وأمته ، فللرسول الدوام والترقي والحصانة ، ولأمته الاتباع لمنهج الله .

ومثل هذا قوله تعالى :

{ يَآأَيُّهَا الذين آمَنُواْ } [البقرة : 153] .

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الالوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان .

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين ، فإذا نُودِي عليهم بهذه الصفة فهي علامة السمو المقبول .

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها ، وفي الاستمرارية ارتقاء .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء } [هود : 109] .

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابدٍ بأمر معبود . وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها .

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل :

{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى } [الزمر : 3] .

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي : أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فإيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النِّسَب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية .

{ مَا يَعْبُدُونَ } [هود : 109] .

أي : على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للآباء؛ ولذلك قالوا :

{ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } [البقرة : 170] .

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى :

{ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ } [هود : 109] .

أي : سنعطيهم جزاءهم كاملاً؛ لأنهم يفسدون في الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار في أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعي يصير إلى اختلال .

وما دام للإنسان حق الاختيار؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذي يضم التكاليف الإيمانية .

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا في طريق إفساد الكون؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة « النصيب » أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفي هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ }

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه :

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة } [هود : 98] .

أي : أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار .

ثم يأتي الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته؛ ولذلك يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب } [هود : 110] .

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام في البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون .

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم .

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعيٍّ ، لأن رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبني إسرائيل؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون .

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم عليهم جميعاً السلام وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين : مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل .

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم .

فالقَدْر المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه :

{ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [الأعراف : 59] .

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان .

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات تلك الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية .

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بعث إليها ليعالج داءها .

وبما أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ستكون آخر عهدٍ لالتقاء البشر بالبشر ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله .

والحق سبحانه هنا يقول :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ } [هود : 110] .

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما .

وقوله سبحانه : { فاختلف فِيهِ } [هود : 110] .

يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذي أنزله الله عليه .

وهكذا فالأمران يلتقيان : أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر واحد؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه .

وقوله الحق : { آتَيْنَا موسى الكتاب } [هود : 110] أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال .

وهو سبحانه مُنزَّه في ذاته عن أي تشبيه ، ولله صفات ، وهي ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزليٌّ لا ينعدم ، وأنت موجود طارىء ينعدم .

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه في إطار :

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية .

وقوله سبحانه هنا :

{ آتَيْنَا موسى الكتاب } [هود : 110] .

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان .

وقد يسأل سائل : وما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح ، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب؟

ونقول : ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم؛ بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم آجلاً ، وهو يوم الحساب .

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها :

{ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } [هود : 110] .

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق؛ ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي .

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه هنا :

{ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ } [هود : 110] .

كأنهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في أول الآية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ }

وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)

إذن : فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى عليه السلام فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة .
ويبيّن الحق سبحانه : لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفّى جزاء عمله؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت لا محالة وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفراً أو إيماناً ، صلاحاً أو فساداً ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة .
وهنا وقفة في أسلوب النص القرآني ، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كمَلَكة ، كما فهمها العرب الأقدمون .
ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم ، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة؛ لأنه من أمة مفطورة على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع .
فاللغة كما نعلم ليست جنساً ، وليست دماً ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ، والطفل الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية؛ لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن .
وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة .
أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة بما لها من مكانة كانت تستقبل أغراباً كثيرين؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية .
ولنقرّبْ هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين : لغة نتعلمها في المنازل والشوارع ونتخاطب بها ، وتسمى « اللغة العامية » ، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس ، وهي اللغة المصقولة المميزة بالفصاحة والضبط .
وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة ، وكانت اللغة الفصيحة هي « العامية » في البادية ، ولم يكن الطفل في البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة .

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيه إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن اللغة التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالنا بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين ، ويتعلمون اللغة على كِبَر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض أغبيائهم أن في القرآن لحناً ، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل الفصاحة ، لم يجدوا في القرآن لحناً ، ولو أنهم أخذوا لحناً على القرآن في زمن نزوله؛ لأعلنوا هذا اللحن؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة صناعتها الكلام .

ولأمرٍ ما أبق الله سبحانه صناديد قريش وصناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً في القرآن لأعلنه .

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً فيه . ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كفره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحناً في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة ، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي .

ومثال ذلك : عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول :

{ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود : 111] .

أي : أن كل واحد من الذين صدَّقوا أو من الذين كذَّبوا ، له توفية في الجزاء ، للطائع الثواب؛ وللعاصي العقوبة .

وكلمة « إنَّ » كما نعلم هي في اللغة « حرف توكيد » في مقابلة مَنْ ينكر ما يجيء بعدها .

والإنكار كما نعلم مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً : « زارني فلان بالأمس » .

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي ، فإن قال لك : « لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر » ، فأنت تقول له : « إن فلاناً زارني بالأمس » .

وحين يرد عليك السامع : « لكنني قابلت فلاناً الذي تتحدث عنه أمس في المكان الفلاني » .

وهنا قد تؤكد قولك : « والله لقد زارني فلان بالأمس » .

إذن : فأنت تأتي بالتوكيد على حَسْب درجة الإنكار .

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس في الدنيا ، قد يقول غافل : لعل الله لم يعد يعذِّب أحداً .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع والمصدِّق ، والعاصي المكذِّب ، فقال سبحانه :

{ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ } [هود : 111] .

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا : لماذا جاء بالتنوين في كلمة « كلاً »؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين يغني عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه :

{ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ } [الواقعة : 8384] .

و « كلاً » في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصي الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً .

أما قوله سبحانه : { لَّمَّا } في نفس الآية ، فنحن نعلم أن « لما » تستعمل في اللغة بمعنى « الحين » و « الزمان » مثل قول الحق سبحانه :

{ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } [الأعراف : 143] .

ومثل قوله سبحانه :

{ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } [يوسف : 94] .

أي حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم : { إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } [يوسف : 94] .

و « لما » تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه :

{ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 14] .

أي : أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد ، وتحمل كلمة « لما » الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك .

وحين تستخدم كلمة « لما » في النفي تكون « حرفاً » مثلها مثل كلمة « لم » ، ولكنها تختلف عن « لم » لأن « لم » تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف . أما « لما » فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه .

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه :

{ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود : 111] .

أي : أن كلاً من الطائع والعاصي سيوفَّى حسابه وجزاؤه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتي أجل التوفية ، وهو يوم القيامة .

وقد جاءت « لما » لتخدم فكرة العقوبة التي كانت تأتي في الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو « لما » .

وحين تقرأ { لَيُوَفِّيَنَّهُمْ } تجد اللام ، وهي لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً .

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، هو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسَى أو تذهب أدراج الرياح؛ لأن من يعلمها هو « الخبير » صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالِم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرَّب على التخصص . ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا « اللطيف والخبير » معاً؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا : أنك قد تعرف مكان اختباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه ، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف .

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا : ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين ، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك يا رسول الله في شيء ، أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل :

{ قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } [الكافرون : 14] .

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة ، وهي العبادة .

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي ، لا يمكن المساومة فيه ، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي ، ولكنه أمر ربَّاني ، يحكمه الحق سبحانه وحده .

وقول الحق سبحانه :

{ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } [الكافرون : 24] .

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة « الله » ستعلو؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة « الكافرين » بقوله

تعالى :

{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } [النصر : 13] .

وهنا يقول الحق سبحانه : { فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ }

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)

والاستقامة معناها : عدم الميل أو الانحراف ولو قيد شعرةٍ وهذا أمر يصعب تحقيقه؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان .

ومثال ذلك : حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس .

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية .

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شيبتني هود وأخواتها » .

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم :

{ فاتقوا الله مَا استطعتم } [التغابن : 16] .

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال :

{ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ } [آل عمران : 102] .

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن قال سبحانه :

{ فاتقوا الله مَا استطعتم } [التغابن : 16] .

إذن : فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة .

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة .

ويقول الحق سبحانه :

{ فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ } [هود : 112] .

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقوف صناديد قريش أمام دعوته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم .

وقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [هود : 112] .

يعني ألا نتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد .

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حدّاً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي؛

فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده .

وقال الحق سبحانه :

{ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229] .

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه :

{ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187] .

أي : أن تبتعد عنها تماماً .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » .

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط ، وهي قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أي : الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان .

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة في مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول :

{ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تسرفوا }

[الأنعام : 141] .

والنهي عن الإسراف هنا؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول : « يا ليتني لم أُعْطِ » . وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل »؛ لأن الدين قوي متين ، و « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله صلى الله عليه وسلم أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحلِّ أيضاً ، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنة الاختيار .

ومثال ذلك : أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزوالة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه .

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان؛ استقامة في تحديد المأمور به والمنهي عنه؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بيّن ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط بمرة بالنقص ، فحين تصلي خارج المسجد الحرام ، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلي في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان : قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه « الحطيم » وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصرت؛ فلم يبنوه . لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالي المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص .

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص ، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة .

وهكذا نجد الاحتياط هو الذي يحدد معنى الاستقامة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

{ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [هود : 112] .

وفي الآية السابقة قال سبحانه : { إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود : 111] .

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ }

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113)

والكافرون كما نعلم قد عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع وفصل في هذا الأمر .

ويأتي هنا توكيد هذا الأمر؛ فيقول سبحانه :

{ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ } [هود : 113] .

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة ، وأنت إذا ركنت للظالم؛ أدخلت في نفسه أن لقوته شأناً في دعوتك .

والركون أيضاً يعني : المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن تزّين للناس ما فعله هذا الظالم .

وآفة الدنيا هي الركون للظالمين؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم ، والاستشراء فيه . وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره ، وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم؛ وأن تزين للناس هذا الظلم .

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله لوجدت آن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من

الركون إلى الظالم؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرْض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر؛ فيتزلزل في نفسه؛ حاسباً حساب القوة التي تركن إليها؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه؛ وفي هذا عزلة له وردع؛ لعله يرتدع عن ظلمه .

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ } [هود : 113] .

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداء مع منهج الله؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد؛ لأنه لا وليَّ ولا ناصر إلا الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار }

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)

وهذا أمر بالخير؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

ونحن نلحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي؛ الأوامر بالخير دائماً؛ والنواهي عن الشر دائماً .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

{ فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ } [هود : 112] .

ثم وَجَّه النهي للأمة كلها : { وَلاَ تَطْغَوْاْ } [هود : 112] ولم يقل : « فاستقم ولا تطغي » لأن الأمر بالخير يأتي للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته معه؛ وفي النهي عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفي هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي صلى الله عليه وسلم .

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه وتعالى :

{ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ } [هود : 113] .

ولم يقل : « ولا تركن إلى الذين ظلموا » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ولأمته :

{ وَأَقِمِ الصلاة } [هود : 114] .

والإقامة تعني : أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه .

ويقال : « أقام الشيء » أي : جعله قائماً على الأمر الذي يؤدي به مهمته .

وقول الحق سبحانه :

{ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار } [هود : 114] .

أي : نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى؛ لان طرف الشيء هو نهايته .

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً؛ وما على يسار الوسط يعد طرفاً آخر؛ وكل جزء بعد الوسط طرف .

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين و التي على اليسار يعد طرفاً .

وقول الحق سبحانه :

{ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار } [هود : 114] .

يقتضي أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط .

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر .

وقول الحق سبحانه :

{ وَزُلَفاً مِّنَ اليل } [هود : 114] .

يقتضي منا أن نفهم أن كلمة { زُلَفاً } هي جمع؛ زلفة ، وهي مأخوذة من : أزلفه ، إذا قرَّبه .

والجمع أقله ثلاثة؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً ، فقال : إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة :

{ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات } [هود : 114] .

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا بأن قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر » .

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم : الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقاباً .

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ولذلك قال بعض العلماء : إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر؟ .

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله .

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر .

وتساءل بعض العلماء : هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات؟

وأجاب بعضهم : هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات » .

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله : الحمد لله الذي رزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة ، والحمد لله الذي كساني من غير حولٍ مني ولا قوة » . وهذا القول يكفّر السيئات .

ألم يقل صلى الله عليه وسلم « إنك إذا قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » فهذا القول كفارة؟

إذن : فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرضٍ ، وهي تذهب السيئات . والسيئة هي عمل توعد الله سبحانه من يفعله بالعقوبة .

وتساءل أيضاً بعض العلماء : إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجَّل ، فكيف تُذهبها الحسنة؟

وأجابوا : إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع؛ أو يحفظها الله إن وقعت؛ لأنه هو سبحانه القائل : { مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

ويقول سبحانه :

{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ } [الانفطار : 1011] .

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة .

والحق سبحانه يقول :

{ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة } [النجم : 32] .

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر .

والحق سبحانه يقول :

{ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر } [العنكبوت : 45] .

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلَّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدةٍ ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحسَّ بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة .

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمَّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة .

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بشعرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة .

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله :

{ ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : 114] .

أي : إن إقامة الصلاة طرفي النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات؛ وفي ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء غُفِل عنه ، أي : أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثاني يذكِّرك بالحكم؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المرائي والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكِّر بما غاب في حاشية الشعور .

ومثال ذلك : إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفي من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها .

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر .

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة

الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها .

وهكذا تفعل الذكرى؛ لأنها تستدعي ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب .

ولذلك يقال : « لا خير في خيرٍ بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة » .

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل } [هود : 114] .

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّي ببعض الوقت ليبارك لك الله سبحانه وتعالى فيما بقي لك من وقتٍ ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام .

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس .

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً؛ فَلَكَ أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فَلَكَ أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي .

وهكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولأهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم إليه ليفرض عليه الصلاة وهي تحية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى .

لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة رسوله صلى الله عليه وسلم جميعاً؛ ولذلك فهي الباقية .

ويُحكَى أن الإمام علياً كرم الله وجهه ورضي عنه أقبل على قوم وقال لهم : أي آيةٍ في كتاب الله أَرْجَى عندكم؟

أي : ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم : هي قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَن يَشَآءُ } [النساء : 116] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها؟ أي : أنها آية تحقق ما طلبه ، لكنها ليست الآية التي

يعنيها .

فقال بعض القوم إنها قول الحق سبحانه :

{ وَمَن يَعْمَلْ سواءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [النساء : 110] .

فكرر الإمام علي : حسنة ، وليست إياها .

فقال بعض القوم : هي قول الحق سبحانه :

{ قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً }

[الزمر : 53] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها :

فقال بعضهم : هي قوله سبحانه :

{ والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله } [آل عمران : 135] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها .

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرَّم الله وجهه : ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم : لماذا سكتم؟ . . فقالوا : لا شيء .

وهكذا جعل الإمام علي التشويق أساساً يبني عليه ما سوف يقول لهم : واشرأبت أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال لهم الإمام علي : سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرْجَى آية في كتاب الله هي قول الحق سبحانه :

{ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : 114] .

يا علي إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل أي : لا يلتفت إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : » يا علي إنما الصلوات الخمس لأمتي كنهر جارٍ بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن ثم اغتسل في البحر ، أيبقى على جسده شيء من الدرن؟ قال : فذلكم والله الصلوات لأمتي « .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين }

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

وجاءت كلمة « اصبر » لتخدم كل عمليات الاستقامة .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا } [طه : 132] .

والصبر نوعان : صبر « على » ، وصبر « عن » وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات .

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين : في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية .

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات؛ فاصبر عنها .

وافرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها؛ ولا يستدين .

ولذلك يقول الزهاد : ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس .

ولذلك نجد من يقول : إذا غلا شيء عليّ تركته ، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا .

والحق سبحانه يقول :

{ واصبر على مَآ أَصَابَكَ } [لقمان : 17] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين } [هود : 115] .

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرق الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابدٍ لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه .

وحاول ألاّ تدخل في مقام الإحسان نَذْراً؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك؛ حتى لا تدخل مع الله في ودٍّ إحساني ثم تفتر عنه ، وكأنك والعياذ بالله قد جرَّبت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك .

وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه ، وبين من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فَرَضَ الله .

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ، وقم لتصلي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ، وحين يجيء الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ، وامتلأتَ بإشراقات نوارينة تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر على مَنْ يرتاض هذه الرياضة الروحية ، حين

تجد الحق سبحانه قد أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية .
ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدَّعي ما ليس له ، والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن يضعها موضع التباهي والمراءاة .

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاة عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى :
{ عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً } [الكهف : 65] .
وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام :
{ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } [الكهف : 67] .
وبيَّن العبد الصالح لموسى بمنتهى الأدب عذره في عدم الصبر ، وقال له :
{ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف : 68] .
وردَّ موسى عليه السلام :
{ ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً } [الكهف : 69] .
فقال العبد الصالح :
{ فَإِنِ اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } [الكهف : 70] .
ولكن الأحداث توالت؛ فلم يصبر موسى؛ فقال له العبد الصالح :
{ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ } [الكهف : 78] .
وهذا حكم أزلي بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقي مع غير المرتاض على ذلك ، وليلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلتزم المرتاض الأدب ، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه .
ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تأدب مع المرتاض لاستقرَّ ميزان الكون .
والحق سبحانه يبيّن لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين ، في قوله تعالى :
{ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 1516] .
ويبيّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه :
{ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن اليل مَا يَهْجَعُونَ } [الذاريات : 17] .
والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلي

العشاء ، وينام إلى الفجر .

وتستمر مدارج الإحسان ، فيقول الحق سبحانه :

{ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات : 18] .

والحق سبحانه لم يكلِّف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

{ وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 19] .

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محددٍ ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم .

وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه .

ولله المثل الأعلى : نحن نجد الإنسان حين يوده غيره؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل في ودٍّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ } .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116)

وكلمة « لولا » هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لعفلٍ لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ، تكون « لولا » للتحسر والتأسف .

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه :

{ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ } [يونس : 98] .

وذكَّرهم بالآيات . ونحن قد علمنا أن « لولا » لها استعمالان في اللغة ، فهي إن دخلت على جملة اسمية ، فهي تدل على امتناع لوجود ، كقول إنسان لآخر : « لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت » وتسمى « لولا » في هذه الحالة « حرف امتناع لوجود » .

وإذا دخلت « لولا » على جملة فعلية ، فهي أداة تحضيض ، وتحميس ، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً ، مثلما تشجِّع طالباً على المذاكرة ، فتقول له : « لولا ذاكرت بجد واجتهاد في العام الماضي لما نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية » .

وفي هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب : « لولا ذاكرت لما رسبت » فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ، وشحن طاقته لما هو آت؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة؛ لذلك تكون « لولا » هنا للتقريع والتوبيخ .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشيء التافه أولاً ، ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشيء القوي؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها .

والحق سبحانه قد بيَّن لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت؛ لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد في الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه :

{ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [هود : 8486] .

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ماهو مدخور .

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

{ وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ } [هود : 85] .

فأنت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً .

ولنا المثل في موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما سألها عن شاة أُهديت له ، وكانت تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب من الشاة كتفها ، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمَّا سألها : ما فعلت بالشاةّ قالت : ذهبت كلها إلا كتفها .

هكذا نظرت عائشة رضي الله عنها هذا المنظور الواقعي؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقي الشاة ، ويلفتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتة إيمان ويقين ، ويقول لها : « بقى كلها إلا كتفها » .

هكذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما بقي من الشاة من خير .

ويؤيد ذلك حديث قاله صلى الله عليه وسلم : « وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه :

{ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً } [الكهف : 46]

.

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله :

{ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف : 46] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

{ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } [مريم : 76] .

إذن : لا بد أن تنظر إلى الباقيات في الأشياء؛ لأنها هي التي يُعوَّل عليها .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى :

{ والآخرة خَيْرٌ وأبقى } [الأعلى : 17] .

ويقول سبحانه :

{ وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى } [القصص : 60] .

إذن : فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقي .

وإذا عضَّتِ الإنسان الأحداث في أي شيء ، نجد أن سطحي الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقي .

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه حينما جُرحت ساقه جرحاً شديداً ، وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء : لا بد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال : والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

وكان هذا القول يعني أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمَّا قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله؛ قال : ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو؛ فقد عافيت في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقي .

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقي الإيمان يقول مرة :

{ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة } [غافر : 40] .

ويقول عن أناس آخرين :

{ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ } [البقرة : 157] .

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله ، وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة .

وهكذا تجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ } [هود : 116] .

أي : لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .

والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار ، والاختبار؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض } [الرعد : 17] .

وفي العصر الحديث نقول : « البقاء للأصلح » .

إذن : فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد في الأرض؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يُصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء .

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذي كوَّن الكون بكماله .

واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

{ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان } [الرحمن : 78] .

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة؛ فلكم أن تعدلوا في الكون في الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة .

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح ، ويرى الناس العاطل ، وهو يحيا في ترفٍ من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد .

وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصونة بالعدالة .

وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين ، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض } [هود : 116] .

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم بشرط أن يأمورا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر .

قال الله تعالى :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } [آل عمران : 110] .

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتقلص الخير في المجتمعات ، وفي النفوس .

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ،

وتختفي منه « النفس اللوَّامة » ، ويستسلم للنفس الأمَّارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوِّمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أمَّنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف ، ومن ينهى عن المنكر؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً لهذا المعنى : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

والعَالِم : هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نضَّر الله وجه امرىءٍ سمع مقاتلي فوعاها ، وأدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامِع » .

ويقول الحق سبحانه :

{ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ } [هود : 116] .

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض .

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم شُرعاً يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَماَّ نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السواء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } [الأعراف : 164165] .

هكذا أنجى الله سبحانه الذي نهوا عن السوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصرين :

الأول : أنه لا يوجد طائفة تنهى عن الفساد .

والعنصر الثاني : أن ينفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه ، وفي انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلَّة للبشر؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته؛ فيزيد هذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب .

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

{ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا } [الإسراء : 16] .

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة

لأمر من الله سبحانه وتعالى والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين } [البينة : 5] .

أي : أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين؛ ففسقوا عن أمر ربهم .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ } [هود : 116] .

وقوله سبحانه : (ظلموا) تبين أن مادة الترف التي عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكادحين .

ومادة (ترف) تعني النعمة يتنعم بها الإنسان . ومنها : أَترف ، وأُترف ، وكلمة « أترف » أي : أطغته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه . وأترف ، أي : مد الله له في النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول :

{ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } [الأنعام : 44] .

فمن يمسك عدوه ليرفعه؛ فلا يظنن أنه يدلّه ، ولكنه يرفعه ليلقيه من علٍ ، فيزداد ويعظم ألمه .

وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة؛ ليطغوا .

ولنا أن ننتبه إلى كلمة « الفتح » التي تجعل النفس منشرحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك؟

إن فُتح عليك؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فُتح لك ، فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل :

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح : 1] .

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر؛ لأنهم غفلوا عنه .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ } [هود : 116] .

أي : كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل؛ وهو اتباع منهج السماء؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة « جرم » وتعني : « قطع » ، وقطع اتباع منهج السماء؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق سبحانه ، والاستغراق في الترف الذي حققوه لأنفسهم بظلم الغير ، وأخذ نتيجة عرق

وجهد الغير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى } .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117)

وساعة تقرأ أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذهنك : ما كان ينبغي .

ومثال ذلك : هو قولنا : « ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا » . وقولنا هذا يعني أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه .

وهناك فرق بين نفي الوجود؛ ونفي انبغاء الوجود .

والحق سبحانه يقول :

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ } [يس : 69] .

وهذا لا يعني أن طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم جامدة ، ولا يستطيع معاذ الله أن يتذوق المعاني الجميلة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جُبل على الرحمة؛ وقد قال فيه الحق سبحانه :

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } [آل عمران : 159] .

ولهذا نفهم قوله الحق :

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ } [يس : 69] .

أي : أن الحق سبحانه لم يشأ له ان يكون شاعراً .

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين « نفي الوجود » وبين « نفي انبغاء الوجود » .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ } [هود : 117] .

أي : لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه واهب كل شيء؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق في العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر .

وحين يورد الحق سبحانه كلمة « القرى » وهي أماكن السكن فلنعلم أن المراد هو « المكين » ، مثل قول الحق سبحانه :

{ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر } [الأعراف : 163] .

وقوله الحق أيضاً :

{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا } [يوسف : 82] .

والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين؛ وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين .

والله سبحانه يقول هنا :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ } [هود : 117] .

أي : أنه مُنزَّه عن أن يهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل؛ لأن العدل ميزان ، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب .

وفي مجالنا البشرى؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة؛ فنحن نتبعه فعلاً؛ لكننا نريح كل المظلومين؛ وهذه هي العدالة فعلاً .

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضي؛ فقد تحدث الجريمة اليوم؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنينات الوضعية؛ ففي هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضي؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة .

ولذلك حرص المشرع الإسلامي على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم في حُمُوَّة وجود الأثر النفسي عند المجتمع؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم ، ويذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب؛ ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها .

ويقول الحق سبحانه هنا :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : 117] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131] .

إذن : لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها .

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : 117] .

والإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا في الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف في الحياة .

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة في الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى في الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا .

وسبق أن قلنا : إن المصلح هو الذي يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود في أقل وقت .

والقرى التي يصلح أهلها؛ لا يهلكها الله؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات؛ بل تتساند وتتعاضد ، ويتواجد المجتمع المنشود .

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوي ، ولكنهم اهتدوا إلى أسلوب عمل يريحهم ، مثل الأمم الملحدة التي اهتدت إلى شيء ينظم حياتهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشري أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس .

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوي فقد شاء به الله سبحانه أن يقي الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعضهم الأحداث .

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهي تعالج بعض الداءات التي يعاني منها البشر ، لا تعطي عائد الكمال الاجتماعي ، أما قوانين السماء فهي تقي البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

{ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : 117] .

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوي ، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوي ، لكنهم يصلحون أنفسهم .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التي تنظم حقوق وواجبات أفرادها؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام .

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله؛ فإن أقبلوا عليه ففي ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيماني .

ولذلك نجد في البلاد التي فتحها الإسلام أناساً بَقَوْا على دينهم؛ لأن الإسلام لم يدخل أي بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمي حق الإنسان في اختيار عقيدته .

يقول الله جَلَّ علاه :

{ لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [الممتحنة : 8] .

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصْلِحة؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا؛ لأنه سبحانه القائل :

{ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً } .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118)

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله سبحانه في هذا الكون كل مقومات الحياة؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان؛ ليمارس مهمة الخلافة في الأرض؛ ولم تتأبَّ تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً؛ لأن الحق سبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو سبحانه لن يضن عليه بمقومات هذا الوجود؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع .

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله سبحانه لكل البشر : مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني : « افعل » و « لا تفعل » .

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة .

إذن : فقدرة الله سبحانه قد أرغمت الكون دون الإنسان أن يؤدي مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام أرادة الله سبحانه وتعالى كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أي من الكائنات الأخرى المسخَّرة عن إرادته .

لأن الحق تبارك وتعالى أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير أجناس لمراده؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله سبحانه القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

أما الذي يثبت له المحبوبية فهو أن يخلق خَلْقاً؛ ويعطيهم في تكوينهم اختياراً .

ويجعل هذا الاختيار كلَّ واحدٍ فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن يعصي ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبية الله تعالى .

وهكذا نعلم أن الكون المسخَّر المقهور قد كشف لنا سَيَّال القدرة ، والجنس الذي وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبية .

والحق سبحانه هو القائل :

{ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

ولكن أيُترك الإنسان حتى يأتي له الغرور في أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا . . فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار؛ لأن في طيّك قهراً ، وما دام في طيك قهر فعليك أن تتأدب؛ ولا تتوهَّم أنك مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من قبضة الله تعالى فهو يملك زمامك في القهريات التي تحفظ لك حياتك مثل : الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه سبحانه ميَّزك بالعقل .

وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطي الأسماء معاني ضد مسمياتها ، فكلمة « العقل » مأخوذة من « عقل » وتعني : « ربط »؛ فلا تجمح بعقلك في غير المطلوب منه؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك . وتذكر دائماً : في قبضة من أنت؛ وفي زمام من أنت؛ وفي أي الأمور أنت مقهور؟ وما دُمْتَ مقهوراً في أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه .

وانظر إلى من سلبهم الحق سبحانه بعض ما كانوا يظنون أنها أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ، أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع .
ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية في الإنسان لما عَصَتْه ، وهذا دليل على أنها أمور موهوبة من الله ، وإنْ شاء أخذها ، فهو سبحانه يأخذها ليؤدِّب صاحبها .
وما دام الإنسان بهذا الشكل ، فليقُل لنفسه : إياك أن تَغترَّ بأن الله جعل فيك زاوية اختيار ، وتذكّر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقَّى التكليف من الله ب « افعل » ، و « لا تفعل »؛ لأن معنى « افعل كذا » : أنك صالحٌ ألاّ تفعل؛ ومعنى « لا تفعل كذا » : أنك صالحٌ أنْ تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْرٍ وتسخير ، فتأدَّبْ في منطقة الاختيار ، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر .
وقد وصف الحق سبحانه الإنسان بأنه كنود ، قال تعالى :
{ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } [العاديات : 6] .
لإن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده ، وأن يقول لنفسه : ما دامت الحيوانية فيَّ مقهورة ، وما دامت الجمادية فيَّ مقهورة؛ فَلأكُنْ مؤدباً مع ربي ، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله .
وأنت إنْ أردتَ أن تضع إحصائية ل « افعل » ولا « تفعل » لوجدت ما لم يَرِدْ فيه تكليف ب « افعل » و « لا تفعل » لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة ، وهو المباح .
وأنزل الله سبحانه التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها إنْ جعلت التكليف هو مرادك وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك .
فساعة يقول لك التكليف : عليك أن تزكّي عن مالك ، فلا بد لك من أن تقدِّر المقابل ، لأنك إن افتقرتَ واحتجْتَ؛ سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبّي احتياجاتك ، فمن « أفعل » التي تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي الثمرة التي تسدُّ عجز أي ضعف في المجتمع الإيماني بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج .
وحين يقول لك التكليف : لا تعتدِ على حُرمات الغير ، فهو يقيِّد حريتك في ظاهر الأمر ، لكنه

يحمي حُرماتك من أن يعتدي عليها الغير ، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر ب « افعل » أو « لا تفعل » .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً } [هود : 118] .
و « لو » تفيد الامتناع . أي : أن الله تعالى لم يجعل الناس أمة واحدة ، بل جعلهم مختلفين .
وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا : ألاَ تتعارض هذه الآية مع قول الله : { كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين } [البقرة : 213] .
وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج .
ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق سبحانه للناس قُوتَهم وقوام حياتهم ، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها ، وقال الله سبحانه : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123] .
ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الأمر ، وهي ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً } [هود : 118] .
وفي الآية التي ظنوا أنها تتعارض مع الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :
{ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة : 213] .
وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم عليه السلام ثم طرأتْ الغفلة؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس .
إذن : فقول الله تعالى :
{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً } [هود : 118] .
يعني أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج؛ كانوا على هداية ، ولكن بحكم خاصية الاختيار التي منحها الله لهم ، اختلفوا .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } [هود : 118] .
أي : أنهم سيظلون على الخلاف .
ويأتي الحق سبحانه وتعالى في الآية التالية بالاستثناء فيقول : { إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ } .

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

أي : أن الحق سبحانه قد خَلَقَ الخَلْق للرحمة والاختلاف .

وساعة نرى « اسم إشارة » أو « ضميراً » عائداً على كلام متقدِّم ، فنحن ننظر ماذا تقدم .

والمتقدم هنا : { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ } [هود : 118119] .

والحق سبحانه وتعالى حين تكلم عن خلق الإنسان قال :

{ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] .

ومعنى العبادة هو طاعة الله سبحانه في « افعل » و « لا تفعل » وهذا هو المراد الشرعي من العبادة؛ ولكن المرادات الاجتماعية تحكَّمتْ فيها خاصية الاختيار ، فحدث الاختلاف ، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدُّد الأهواء .

فلو أن هَوَانَا كان واحداً؛ لما اختلفنا ، ولكنّا نختلف نتيجة لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يميني؛ وذاك هواه يساري؛ وثالث هواه شيوعيٌّ؛ ورابع هواه رأسماليّ؛ وخامس هواه وجوديّ ، وكل واحد لهم هوى .

ولذلك قال الحق سبحانه : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض } [المؤمنون : 71] .

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله سبحانه أهواء البشر المختلفة ، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرتْ حركته الاختيارية عن هوًى واحد؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة في كل مناحي الحياة؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة .

ولو شاء سبحانه ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها؟ ولو كنا جميعاً مهندسين؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكاملٍ وضرورة؛ لا ارتباط تفضُّل .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً } [الزخرف : 32] .

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعني تلك النظرة الحمقاء الرعناء ، والتي تدعي أن في ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع في جهة بسبب ما يُحسنه فيها؛ ومرفوع عليه في جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره

مكمل له .
وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم ، واختلاف المواهب هي مقومات التلاحم .
ولذلك قلنا : إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى؛ وقيمة كل امرىء ما يُحسنه .

وقد ترى صاحب السيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدي ملابس رثة ومتسخة؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل : لا وقت عندي لإصلاح سيارتك؛ فيلحّ صاحب السيارة الفارهة بالرجاء؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها .
لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك في أي مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه؛ ولكن قُلْ لنفسك : لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما .
ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة .
ولذلك يقول الحق سبحانه هنا : { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ } [هود : 118119] .
وإن كان الاختلاف في المقدرات والمنهج؛ فهذا ما يولّد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله .
وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخّص الداء ، ويصفَ الدواء الشافي بإذن الله .
ولذلك نقول : الألم رسول العافية .
والحق سبحانه يقول هنا : { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ } [هود : 118119] .
وأنت إن دقَّقت النظر في الاختلاف لوجدته عين الوفاق .
ومثال ذلك : اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام ، فتجد ابناً يفضّل صدر الدجاجة ، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها « الوَرِك » ، وتضحك أنت لهذا الاختلاف ، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر ، ولكن باطنه وِفَاق ، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة .
ولمن يسأل : هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟
نقول : إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً ، لأن الجهة مُنفكَّة .
ثم يقول سبحانه في نفس الآية : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ } [

هود : 119] .

والحق سبحانه قد علم أزلاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر ، وهذا من صفات العلم الأزليّ لله سبحانه وتعالى ولذلك قال سبحانه : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ } أي : علم سبحانه مَنْ مِنْ عباده سيختار أن يعمل في الدنيا عملَ أهل النار ، ومن سيختار أن يعمل عملَ أهل الجنة؛ لسبْق علمه الأزليّ بمرادات عباده واختياراتهم .

وسبق أن ضربنا مثلاً ولله المثل الأعلى بعميد الكلية الذي يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم؛ لأن هناك جوائز في انتظارهم ، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمسَ فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب؛ ويُفاجأ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ، وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته .

ولكن قد تحدث مفاجأة : أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارىء يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك؛ وبهذا يختلّ تقدير أستاذه؛ لكن تقدير الحق سبحانه مُنزَّه عن الخطأ ، وما عَلِمه أزلاً فهو مُحقَّق لا محالة؛ لذلك بيَّن لنا أنه عِلْم أزليّ ، ويتحدى الكافر به أن يغيره .

وكلنا يعرف أن الحق سبحانه أنزل قوله الكريم :

{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد : 1] .

وسمعها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان ولو نفاقاً .

وقول الحق : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ } تبيّن لنا أن الحق سبحانه إنْ قال شيئاً فهو قد تَمَّ بالفعل؛ فلا رادَّ لمشيئته ، أما نحن فعلينا أن نسبق كل وعد بعمل سنقوم به بقول : { إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } [الكهف : 24] .

لأن الحق يقول لنا : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } [الكهف : 2324] .

وفي هذا احترامٌ لوضعنا البشري ، وإيمانٌ بغلبة القهر ، ومعرفة لحقيقة أننا من الأغيار؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً؛ ومفعولاً يقع عليه الفعل؛ ومكاناً؛ وزماناً؛ وسبباً؛ ولا أحدَ مِنَّا يملك أيَّ واحد من تلك العناصر .

فإن قُلْتَ : { إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } تكون قد عصمتَ نفسك من أن تكون كاذباً ، أو أن تَعِدَ بما لا تستطيع ، لكن إذا كان مَنْ يقول هو مالك كل شيء ، ولا قوة تخرجه عَمَّا قال ، فهو وحده القادر على أن ينفِّذ ما يقول .

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله تعالى يتجرد عن الزمن؛ فلا نقول : « فعل ماضٍ » أو

« فعل سيحدث في المستقبل » أو « فعل مضارع »؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُ بها أفعال البشر ، لكن أفعال الله سبحانه لا تقاس بنفس المقياس ، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل .

والحق سبحانه يقول :

{ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] .

وقوله سبحانه : { أتى } بمعنى : تَقرَّر الأمر ولم يُنفَّذ بعد فلا تتعجَّلوه؛ وهذا هو تحدِّي القيومية القاهرة ، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله سبحانه وتعالى فهو يحكم فيما يملك ، ولا مُنَازِع له سبحانه .

وقوله الحق : { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ } [هود : 119] .

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان المكلَّفان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل } .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

وساعة ترى التنوين في قوله الحق { وَكُلاًّ } فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق سبحانه في القرآن الكريم .

وحين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن فعل قد أحدثه؛ فلنا أنْ ننظر : هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له سبحانه أم مأخوذ من اسم موجود؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله تعالى : { خَلَقَكُمْ } [النحل : 70] .

نعلم منه أنه سبحانه خالق ، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى ، فإياك أنْ تشتقَّ من الفعل اسماً لله .

ومثال ذلك قوله سبحانه : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ } [هود : 120] .

والذي يقصُّ هنا هو الله سبحانه لكن لا أحد في إمكانه أن يقول : إن الله قصَّاص ، مثلما لا يحق لأحد أن يقول : إن الله ماكر ، رغم أن الله سبحانه قد قال : { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق سبحانه قد قال : { إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء : 142] .

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال؛ وأن نكتفي بقول : إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل } [هود : 120] .

و « أنباء » جمع « نبأ » ، وهو الخبر العظيم الذي له أهمية ، والذي يختلف به الحال عند العلم به ، وأخبار الرسل عليهم السلام تتناثر لقَطاتٍ مختلفة عَبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحة ما جاء به كل رسول معالجاً الداء الذي عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء في القرآن لتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول سيصادف في الدعوة المتاعب والصعاب .

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف ، يقول الحق سبحانه :

{ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله } [البقرة : 214] .

ويقول الحق سبحانه مصوّراً حال المؤمنين :

{ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا } [الأحزاب : 10] .

ومثل هذه المواقف تقتضي تثبيت الفؤاد؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيماني بربِّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه .

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التي تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التي يتعرض لها ، ويثبت فؤاده .

و « الفؤاد » هو ما نقول عنه : « القلب » ، وهو وعاء العقائد ، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس وسائل الإدراكات من عين ترى ، ومن أذن تسمع ، ومن أنف يشُم ، ومن فَمٍ يستطعم ، ومن كفٍّ تلمس فتتولد المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية .

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ في الفؤاد لتصير عقيدة؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد؛ ولذلك يسمونها « عقيدة » من العقدة فلا تتذبذب بعد ذلك .

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها .

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التي استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته .

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة ، ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار محرقة؟ نقول : جاء من أمر حسي بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته .

لا بد إذن أن يكون القلب ثابتاً؛ غير مذبذب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] .

لأن الفؤاد هو الوعاء الذي من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق سبحانه وما يأتي من الحق سبحانه هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير .

وحق الحق ينبوع العقيدة الذي ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمه المكلِّف قبل أن يُقبِلَ على التكليف؛ لذلك لزم أن يأتي الدليل على وجود الحق سبحانه وهو قمة الوجود الأعلى قبل أن تأتي الموعظة ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذي لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة .

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهي هنا صادرة من الحق سبحانه ، الذي خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه سبحانه .

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك؛ لأنه لن يَعِظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذي يعظ به؛ بالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فَلْتعِظْ نفسك أولاً .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

{ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }

[الصف : 3] .

لأن الواعظ الذي يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطي الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة؛ وليقول لنفسه : « لو كان في هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه » .

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول صلى الله عليه وسلم كمُثَبِّتٍ ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكَّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التي سيعاني منها مَنْ لا يأخذ التكليف بعمق الفهم .

فقد يرى بعض المكلَّفين مثلاً أن الأمر بغَضِّ الطَّرْف حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غورَ الفهم بأن غَضَّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في الزكاة أنها أخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن في الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيماني التأمين الاجتماعي الذي يحميه وعياله من مَغبَّة السؤال .

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن } [النساء : 82] .

لأنك حين تتدبر المعاني ستعلم أن التكليف هو تشريف لك؛ وستقول لنفسك : « ما كلفني الله إلا لخير نفسي؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضي على الفساد؛ لأن الفساد في الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاومٍ له .

إذن : فموقف خصوم النبي صلى الله عليه وسلم موقف طبيعي لصالحهم ، ولكنهم لحمقهم حددوا الصالح بمصالحهم الآنية في الحياة الدنيا؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة نعيماً أو عذاباً .

ولو أنهم امتلكوا البصيرة؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقوِّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شراً يوجد لهم في الآخرة .

ولو أنهم فَطِنوا؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصلاح المستضعفين المستغلين بالفساد؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل؛ لكانوا من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكان من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعي إلى الفساد؛ وسمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد؛ أن يتبعوه وأن يشكروه؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم .

وهنا يوضح الحق سبحانه لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل ، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها ، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذي جئتَ به لن يأتي بعده دين آخر؛ لذلك لا بد أن تتركز المتاعب كلها معك؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادِفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل؛ لأن هذا الفؤاد هو الذي سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة « لا إله إلا الله » إلى أن يكون ذكرى تذكّرك والمؤمنين معك .

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول صلى الله عليه وسلم كمثَّبت؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً .

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار حين بايعوه في العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه؛ فماذا يكون لنا؟ ولم يَقُلْ لهم صلى الله عليه وسلم : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة » .

لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذي يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات .

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه .

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثاني؛ الطرف المكذِّب للرسول؟

كان ولا بد أن يتكلم الحق سبحانه هنا عن المكذِّبين للرسول؛ لأن استدعاء المعاني يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر .

وما دام الحق سبحانه قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال ، والموعظة ، وتذكير المؤمنين؛ لحظة أن تخور منهم العزائم ، فلا بُدَّ إذن أن يتكلم سبحانه عن القسم الآخر؛ وهو القسم المكذِّب ، فيوضح سبحانه لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيَّب .

يقول الحق سبحانه : { وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا } .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121)

أي : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم مستندٌ إلى رصيد قويّ من الإيمان بإلهٍ لا يهوله أن يستعد له الخصم؛ فهو صلى الله عليه وسلم والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم؛ ولا بعدَدهم وعُددهم؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذي يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ونحن نرى في حياتنا اليومية أن أي قائد في معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذي يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته ، فما بالنا بالمدد الذي يأتي ممن لا ينفد ما عنده؛ وممن لا يُجير عليه أحدٌ؛ فهو يُجير ولا يُجَار عليه .

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة ، فموسى عليه السلام حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أنْ لا نجاة لهم؛ فالبحر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا :

{ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] .

لكن موسى عليه السلام يطمئنهم :

{ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .

فموسى عليه السلام يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه ، وأمدَّه الله سبحانه بمعجزة جديدة :

{ اضرب بِّعَصَاكَ البحر } [الشعراء : 63] .

فينفلق البحر؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة؛ وسار موسى عليه السلام وقومه ، وفكر موسى في قطع السبيل على عدوه حتى لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا ، وأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى ، فيقول له الله سبحانه : { واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24] .

أي : أتركه على ما هو عليه؛ لينخدع فرعون ويسير في الطريق اليابسة ، ثم يعيد الحق سبحانه البحر كما كان ، وبذلك أنْجَى الحق سبحانه وأهْلَكَ بالشيء الواحد؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله سبحانه وتعالى وحده .

وهكذا يَهَبُ الحق سبحانه المؤمنين به القدرة على تحدي الكافرين . والإيمان كله معركة من التحدي؛ تحدٍّ في صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته ، وتحدٍّ في نصرة الرسول ومَنْ معه من قلة مؤمنة؛ فيغلبون الكثرة الكافرة .

والحق سبحانه يقول : { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين } [البقرة : 249] .

وهكذا يشيع التحدي في معارك الإيمان .

وقد تميّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً؛ ثم ينتهي دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء؛ ليبشِّر به قومه ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميَّز بمعجزة لا تنتهي ، وهي عَيْنُ منهجه؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة؛ فكان لا بد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة .

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة .

والحق سبحانه يقول هنا : { وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ } [هود : 121] .

ونحن نعلم أن كل كائن منَّا له مكان ، أي : له حَيِّز وحِرْم . ويقال : فلان له مكانة في القوم ، أي : له مركز مرموق؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أنْ يشغله ، وهو مكان يدلُّ على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن .

فقول الحق : { اعملوا على مَكَانَتِكُمْ } [هود : 121] .

أي : اعلموا على قَدْر طاقتكم من عُدة ومن عَدد ، فإن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رباً سيهديه وينصره ، وفي هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر مِنْ عَدوِّهم .

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل لأصبحوا من الطائعين .

وحين يقول لهم سبحانه في آخر الآية :

{ إِنَّا عَامِلُونَ } [هود : 121] .

فمعنى ذلك أن كل ما في قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار الأحداث؛ أما فعل الله تعالى فهو غير محدود؛ لأنه سبحانه قديمٌ أزليٌّ لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدَث الحادث عمل القديم الأزلي ، فقوة الحادث المُحدَث موهوبة له من غيره ، أما قوة الحق سبحانه فهي ذاتية فيه .

ونحن نعلم أن أيَّ عمل إنما يُقَاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل؛

نَسَوا مَنِ الذي عَمِلَ العمل ، ولو كان العمل من فعل البشر لَحَقَّ للإنسان أن يتكلم ، لكن إذا ما كان العمل من الله تعالى فليلزمِ الإنسان حدوده .

ومثال ذلك : هؤلاء الذين جادلوا في مسألة الإسراء التي قال فيها الحق تبارك وتعالى : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] .

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، فكيف يقول إنه أتاها في ليلة؟

وكان الرد عليهم : إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو ، بل أُسْرِيَ به ، والذي عمل ذلك هو الله سبحانه وليس محمداً ، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ } .

وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122)

في هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد؛ فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم .

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة : { أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً } [الأعراف : 44] .

وفي انتظار الكفار تهديد لهم ، وفي انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تَأْتِ الأحداث المستقبلة كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا مِنْ واثقٍ بأن ما في هذا القول سوف يتحقق .

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التي جاءت في القرآن .

ألم ينزل قول الحق سبحانه :

{ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية ، حتى قال عمر رضي الله عنه أيُّ جَمْعٍ يهزم؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين ، وعدم قدرة بعض المؤمنين على حماية نفسه ، ثم تأتي غزوة بدر؛ ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن العجيب أنه صلى الله عليه وسلم خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين ، بل وأماكن إصاباتهم ، وجاء ذلك قرآناً يُتلى على مر العصور ، مثل قوله الحق : { سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم } [القلم : 16] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما شاء سبحانه أن يُنزل على الرسول لقطاتٍ من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أَزْره ، وليثبّت فؤاده

، ويذكِّر المؤمنين فيزدادوا إيماناً .

ثم يختتم الحق سبحانه سورة هود بقوله الكريم : { وَللَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض }

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

أي : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم ، يخبركم به الله سبحانه من خلال ما يُنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد شاء الحق سبحانه أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقة منه سبحانه أنه إذا أخبرنا في القرآن بخبر لم يجيء أوانه ، فَلْنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجري فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات مؤمنهم وكافرهم فإذا حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق .

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله تعالى عن أمر لم نشهده من قديم قد أَوْغَلَ في الزمن ، ولم يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب ولم يسمعه من معلِّم؛ فهذا كَشْف لحجاب الماضي .

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء « ماكُنات القرآن » مثل قوله الحق : { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : 44] .

وغير ذلك من الآيات التي تبدأ بقوله الحق : { مَا كُنْتَ } .

وقد كان هناك أناس في ذلك الماضي يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومَنْ معه؛ لكن الحق سبحانه أظهر هذا الغيب للرسول الذي لم يجلس إلى مُعلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق سبحانه لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان .

ومَنْ ينكشف له حجاب الزمان وحجاب المكان؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذي كشف هذا هو الحق سبحانه الذي قدَّر مجيء هذا العالم ، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة .

وقد طمر الحق سبحانه في القرآن أموراً لو كُشف عنها في زمن بَعْثة الرسول؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك؛ وتحدث سبحانه عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله صلى عليه وسلم؛ لم يكن أحد يتوقعها .

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وهَزَمَتْ فارس التي لا تؤمن بإله امبراطورية

الروم التي تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة .
لذلك حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهزيمة الذين يؤمنون بإله في السماء؛ فَيُسرّي الله سبحانه الأمر على رسوله ، ويُنزِل الحق سبحانه قرآناً يُتلَى على مَرّ العصور وكل الأزمان؛ يحمل نبوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس .

ويقول سبحانه : { الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم } [الروم : 15] .
هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في بضع سنين؛ و « البِضْع » يقصد به من ثلاث لتسع سنوات .
وإنْ قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما عِلْم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟
وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هَتْكا للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله صلى الله عليه وسلم .
والغيب المطلق هو الذي لا يعرفه إلا الحق تبارك وتعالى وليس له مقدمات ، ويكشفه الله لمن يرتضيه ، مصداقاً لقوله سبحانه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } [الجن : 2627] .
وهذا الغيب المطلق يختلف عن الغيب المقيّد الذي له مقدمات؛ ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍ من أسرار الكون .
والحق سبحانه هو القائل :
{ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ } [البقرة : 255] .
وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة في الكون ومطمورة فيه؛ وجعل الله تعالى لكل مستور منها ميلاداً ، فالبخار واستخدامه في الحركات كان له ميلاد؛ والكهرباء كان لها ميلاد؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد ، وكل مُكْتَشف ومُخْتَرَع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفي ميلادها إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم .
وقد يأتي هذا الميلاد بكشف وبحث؛ وقد يُظهره الله بدون بَحْث؛ أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابع من قاعدة « أرشميدس » ومثلما أظهر الحق سبحانه قانون الجاذبية صدفة؛ أي : أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث في شيء ، فيظهر له شيء لم يكن

يبحث عنه؛ ولذلك نسب الحق سبحانه الإحاطة له سبحانه .
وهنا يقول الحق سبحانه : { وَللَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ } [هود : 123] .
ولم يقل : « إليه يَرْجع الأمر كله » ، لأنه سبحانه ضبط كل مخلوق على قدر .
ولله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر في توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب .
والله سبحانه القائل :
{ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .
فكل شيء إما يرجع إلى الله في التوقيت الذي شاءه الله .
أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حي؛ لأن الحق سبحانه قد خلق في الكون أشياء وترك ملكيتها له سبحانه والحق سبحانه لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها ، مثل : الشمس التي ترسل أشعتها ، ويستفيد الإنسان بضوئها وحرارتها ، وهي لا تدخل في ملكية الإنسان؛ لأنها من أساسيات الحياة؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذي خَصَّه الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها؛ حتى لا يعبث بها .

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق سبحانه في سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعبث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر .
شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات في يده دون أن يُمَلِّكها لأحد؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه سبحانه عَلِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسيء استخدام تلك الأساسيات .
وسَخَّر الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات ، وسخَّر بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيره ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق سبحانه أن يجعلها أغياراً؛ فالقوي يسير إلى الضَّعْف ، والفقير قد يصبح غنياً .
وهكذا يَثْبت لنا أن كل ما نملك موهوب لنا من الله تعالى وليس هناك ما هو ذاتيٌّ فِينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله سبحانه وتعالى .
ولذلك يقول الحق سبحانه :
{ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .
ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير الذي كانت عليه في الدنيا .
وإذا كان الحق سبحانه يقول هنا :

{ وَللَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض } [هود : 123] .

فهو سبحانه يقول في آية أخرى : { لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى } [طه : 6] .

وكأن الحق سبحانه ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله تعالى بها على عباده أنه يملكها .

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذي تحت الثرى .

وحين يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ } [هود : 123] .

ففي ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُسْتهدفاً النجاة حين لا يكون لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة .

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق الأعلى الذي أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته سبحانه وأعطاه غِنًى من باطن غِنَاه سبحانه وأعطاه حكمة من باطن حكمته سبحانه وأعطاه قبضاً وبسطاً من باطن قدرته سبحانه وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من فَيْضها ، ثم تظل الفيوضات للحق سبحانه وتعالى .

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن الأمر كله له سبحانه .

فإنْ حُدِّثتَ في القرآن بأمر تغيب عنك مقدماتُه ، فاعلمْ أن الذي أنزل هذا الكتاب لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض .

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم على ثقة أن الحق سبحانه حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع في كل الأمور إليه سبحانه .

واطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه أن أعداء الدين إنْ لم يُجازَوْا في الدنيا ، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد مَلَّكهم أشياء؛ فسيسلُبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإنْ كان قد أعطاهم الخِيَار في الدنيا؛ خِيَار أنْ يؤمنوا ويطيعوا ، أو أنْ يكفروا ويعصوا؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لمُلْك يصير مُلْكه بعده إلى الله .

وما دام الأمرُ كذلك فلنعبد الله وحده سبحانه لأنه صاحبُ الأمر فيما مضى؛ وله الأمر الآن؛ وله الأمر فيما يأتي .

وهو سبحانه الذي شاء ، فجعل للإنسان ثلاثةَ أزمان : زمان سَبقَ وجود آدم؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أيٍّ منا؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية؛ وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث .

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة؛ وتنضج عقلياً أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ

الجنس البشري .
وأنت في هذه الحالة تكون رَهْناً بثقة المحدِّث : هل يقول الصدق أم يقول الكذب؟ خُصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل آدم ، ولا بد أنْ تقول لنفسك : لا يمكن أن يُحدِّثني عن ذلك إلا مَنْ خلقني .
وساعة يُبلِّغُكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بداية الخلق قائلاً : « كان الله ، ولم يكُنْ شيء غيره » .
ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عمَّا فاتَ قبل آدم هو الله سبحانه وتعالى .
وإنْ سألتَ : لماذا وُجِدتُ في زمني هذا ، ولم أوجد في زمن آخر؟ هنا ستقول لنفسك إنْ كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ أوجدني هي التي رجَّحتْ وجودي في هذا الزمن عن أي زمن آخر » .
ولا بد أن تسأل نفسك : وما المطلوب مني؟
وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة؛ لأن تلك الحركة هي الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61] .
فقد أعطاك الحق سبحانه العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل ، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق؛ لتستخرجه وتتعيش منه .

وهكذا يتضح لك أن كل شيء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت في حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطي للأدنى منك؛ لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطي للأدنى منك .
وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلي بين يدي الله خمس مرات كل يوم؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجدِّد ولاءك لمن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدي الله سيأتي مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .
والحق سبحانه يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول :
{ ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع } [الجمعة : 9] .
هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى ، فالسعي إلى ذكر الله وترك البيع من أجل ذلك يعطي الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها في الحركة الثانية من حركات الإنسان .
ولذلك يقول الحق سبحانه بعد هذا :
{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

} [الجمعة : 10] .

ولذلك يقول الحق سبحانه في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود : 123] .

أي : أطِع الله في أمره؛ لأنه سبحانه الأعلى منك ، بأن تؤدي المطلوب العبادي من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج إنِ استطعتَ لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك في حركتك الثانية التي تتحركها في الكون .

ومن العجيب أن حركتك في الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوِّن الكون سبحانه .

فأنت حين تصلي تحتاج لِسَتْر عورتك بثوب ، وحتى تأتي بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح في الزراعة ، وحركة العامل في النَسْج ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب .

وبذلك تكون قد أخذتَ كل علوم الحياة؛ لكي تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى .

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطي الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي صاحب المدد الأعلى .

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة ، هي استقبال من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظِّم حركة حياتك على ضوء منهجه سبحانه .

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه المدد .

ولذلك « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة » .

ومعنى « حزبة » أي خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإنْ عبدتَ الله وتوكلتَ عليه؛ فهو يعينك؛ لأنه سبحانه لا يغفل عما نعمل .

وهذه الآية تدلُّك على السعادة في الحاضر والمستقبل؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشرة أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك ، وتُكتب السيئة بمثلها .

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة .

يقول الحق سبحانه :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّويّ يعطي للمؤمن حياة الحياة ، وهي حياة تعيش في معية الله .

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)

لقد تعرضنا من قبل لفواتح السور؛ من أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وقلنا : إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة؛ ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف .

فإن لكل حرف اسماً ومُسمَّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها .

فإن الأمي إذا سُئل أن يتهجى أيَّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها .

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول : إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوي عندك حين تقرأ في أول سورة البقرة : { الم } [البقرة : 1] .

مثلما تقول في أول سورة الشرح : { أَلَمْ } [الشرح : 1] .

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم » .

وأقول ذلك لأن القرآن كما نعلم ليس كأي كتاب تُقبِل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا . بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح قراءتك على قارئ؛ لتعرف كيف تنطق كل قَوْل كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفتَ على كيفية القراءة؛ لأن كل حرف في الكتاب الكريم موضوع بميزان وبقدر .

ونحن نعلم أيضا أن آيات القرآن منها آياتٌ مُحْكمات وأُخَر مُتَشابهات . والآيات المُحْكماتُ تضم الأحكام التي عليك أن تفعلها لِتُثاب عليها ، وإنْ لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما في الآيات المُحْكمات وَاضح .

أما الآيات المُتَشابهات إنما جاءت متشابهة لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد .

ووسائل الإدراك هذه؛ لها قوانين تحكمها :

فعيْنُك يحكمها قانون إبصارك ، الذي يمتد إلى أن تلتقي خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها؛ ولذلك تصغُر الأشياء تدريجياً كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك .

وصوتُك له قانون؛ تحكمه ذبذبات الهواء التي تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك .

وكذلك الشَّمُّ له حدود؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة في بلد بعيدة .
وكذلك العقل البشري له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسان الأمور ، فلم يمنع تأمل وردة جميلة ، لكنه أمر بغضِّ البصر عند رؤية أي امرأة .
وهكذا يُحدِّد لكَ الحق الحلال الذي تراه ، ويُحدِّد لك الحرام الذي يجب أن تمتنع عن رؤيته .

وكذلك في العقل؛ قد يفهم أمراً وقد لا يفهم أمراً آخر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف؟
انظر إلى موقف تلميذ في الإعدادية؛ وجاء له أستاذه بتمرين هندسي مما يدرسه طلبة الجامعة؛ هنا سيقول التلميذ الذكي لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسي ، هذا القول يعني أن التلميذ قد فهم حدوده .
وهكذا يعلمنا الله الأدب في استخدام وسائل الإدراك؛ فهناك أمر لك أن تفهمه؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه؛ لأنه فوق مستوى إدراكك .
ودائما أقول هذا المثل ولله المثل الأعلى إنك حين تنزل في فندق كبير ، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أي غرفة أخرى ، وفي كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص في تصميم مثل تلك المفاتيح .
فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع في تصميم مثل تلك المفاتيح .
فما بالنا بكتاب الله تعالى وهو الكتاب الجامع الذي يقول فيه الحق تبارك وتعالى : { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب } [آل عمران : 7] .
إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مَأْربهم ، وهو إبطال الدين بأيِّ وسيلة وبأي طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله .
ولهؤلاء نقول : لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئةً بحروف تنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها .
وقد أرادها الحق سبحانه كذلك ليختبر العقول؛ فكما أطلق سبحانه للعقل البشري التفكير في أمور كثيرة؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التي تفوق حدود عقله .
والحق سبحانه وتعالى يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتي بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن؟
وقوله الحق سبحانه : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم . . } [آل عمران : 7] .

قد يُفْهم منه أنه عطف؛ بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله؛ وبالتالي سيُعلِّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل . ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم : {كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . . } [آل عمران : 7] .

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به .

وجاء لنا قوله صلى الله عليه وسلم لِيَحُل لنا إشكال المُتَشابَه :

« ما تشابه منه فآمنوا به » .

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان .

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره صلى الله عليه وسلم لنا أن نستلم الحجر الأسود وأن نُقبِّله ، وأن نَرْجُم الحجر الذي يمثل إبليس ، وكلاهما حجر ، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به صلى الله عليه وسلم .

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك ، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لَعبدْتَ عقلك ، والحق سبحانه يريد أن تُقبِل على الأمور بِحُكْمِه هو سبحانه .

وأنت إن قلتَ لواحد : إن الخمر تهري الكبد . ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد ، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر في الكبد ، ورَاعَه ذلك؛ فقال : والله لن أشربها أبداً .

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نفَّذ تعاليم السماء فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها .

إذن : فعِلَّة المُتَشابه؛ الإيمان به . وقد يكون للمُتَشابه حكمة؛ لكِنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة .

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهي عند عتبة إيمانك بالله .

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول : إن العقل كالمطيَّة ، يُوصِّلك إلى باب السلطان ، لكنه لا يدخل معك .

إذن : فالذي يناقش في عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع مُسَاوٍ له في الحكمة ، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعا لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التي جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفذ من العطاء إلى أن تُحل إنْ شاء الله من الله .

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل ، ففي آخر سورة هود نجد قول الحق سبحانه : { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود : 123] .

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة « تعملون » ساكنة النون ، لكنها موصولة ب « بسم الله الرحمن الرحيم »؛ لذلك جاءت النون مفتوحة .

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل ، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف « ألفٌ لامٌ رَاءٌ » لكن الرسول صلى الله عليه وسلم علَّمنَا أن نقرأها « ألفْ لامْ راءْ » وننطقها ساكنة .

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن لله سبحانه حكمة في هذا وفي ذاك .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل عليه السلام وراجعه مرتين في رمضان الذي سبق وفاته صلى الله عليه وسلم .

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق سبحانه على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين } [يوسف : 1] .

و « تلك » إشارة لما بَعْدَ (الر) ، وهي آيات الكتاب .

أي : خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى : { الر . . . } [يوسف : 1] لكنه ليس كل الفهم .

مثل : صانع الثياب الذي يضع في واجهة المحل بعضاً من الخيوط التي تم نَسْج القماش منها؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة .

فكأنَّ الله سبحانه يُبيِّن لنا أن { الر . . . } [يوسف : 1] أسماء لحروف هي من أسماء الحروف التي نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر ولو عاونهم الجن أن يأتوا بمثله .

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التي تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق سبحانه فلا بد أن يكون كلامه مُعجزاً؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التي نستخدمها نحن البشر .

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق أسماء الحروف « أَلِفْ لام رَاء » ، وهو صلى الله عليه وسلم الأمي بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلِّماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى .

ويقول الحق سبحانه : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين } [يوسف : 1] .

كلمة « الكتاب » عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم .

ونجد كلمة « المبين » ، أي : الذي يُبيّن كل شيء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ في الأرض ، فإن بانَ لك شيء وظننتَ أن القرآن لم يتعرَّض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك .

ويُروى عن الإمام محمد عبده أنه قابل أحد المستشرقين في باريس؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال :

مادامتْ هناك آية في القرآن تقول : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . } [الأنعام : 38] فَدعْنِي أسألك : كم رغيفاً ينتجه أردبُّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر . واستدعى الإمام خبازاً ، وسأله : كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال .

هنا قال المستشرق : لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز . فردَّ الإمامُ : إذا كان القرآن قد قال : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . } [الأنعام : 38] فالقرآن قال أيضاً : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .

لقد فَطِن الإمام محمد عبده إلى أن العقل البشري أضيق من أن يسع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يوزّع المواهب بين البشر؛ ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو من أهل الذكر في مجاله .

ونحن على سبيل المثال عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص في المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث .

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج ، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها صلى الله عليه وسلم .

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعي مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع في بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك .

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج ، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصبْاً عنه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . . } .

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)

وبالنسبة للقرآن نجد الحق سبحانه يقول : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومرة يقول :

{ نُزِّلَ . . . } [محمد : 2] ، والنزول في هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة .

أما قول الحق سبحانه : { أُنْزِلَ . . . } [البقرة : 91] ، فهو القول الذي يعني أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً في اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً متفرقة؛ ليعالج كل المسائل التي تعرَّض لها المسلمون .

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين .

والحق سبحانه يقول : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . } [الإسراء : 105] أي : أن الحق سبحانه أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعي .

وفي هذه الآية يقول سبحانه :

{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . . } [يوسف : 2] .

وفي الآية السابقة قال : { تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . } [يوسف : 1] .

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرَّة يَصِفه بأنه كتاب؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية .

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع ليكتب؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين .

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها .

وهو قرآن عربي؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجاهر بالدعوة في أمة عربية ، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله ، وأن تكون مِمَّا نبغ فيه العرب؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدي ، ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة؛ حتى لا يقولن أحد : نحن لم نتعلم هذا؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه .

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون في الأسواق ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين ، وكانت المباريات الآدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى في هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام .

أي : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس في الأسواق ، فهم أمة بيان وبلاغة وفصاحة .

لذلك شاء الحق سبحانه أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدي بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التي تطغى على مبادىء الفرس والروم .

وهي مبادىء قد نزلت في أمة مبتدِّية ليس لها قانون يجمعها ، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان .

وحين نزل فيهم القرآن عَلِم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُبتدِّية قد امتلكتْ ما يبني حضَارة ليس لها مثل من قَبْل ، رغم أن النبي أمِيٌّ وأن الأمة التي نزل فيها القرآن كانت أمية .
وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذي نزل في تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه ، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدي ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضاري من نوع آخر لم يعرفوه .

ويشاء الحق سبحانه أن ينزل القرآن عربياً؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . } [إبراهيم : 4] .
وأُرسِلَ محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، الذي تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه؛ بأنه كتاب ومعجزة في آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه صلى الله عليه وسلم مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التي أُنزِلَتْ إليهم .
ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا في العالم ، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام .
ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام في تلك المدة الوجيزة ، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهِين بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم .
ففي القرآن قوانين تُسعِد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث في الكون؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذي أنزله الله على رسولهم لم يفرط في شيء .
وإذا قال قائل من المستشرقين : كيف تقولون : إن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التي تُؤمِّنُون بها على دعاء الإمام؛ كما توجد ألفاظ رومية ، وأخرى فارسية؟
وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربي استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن في عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل في لغتنا أيَّ لفظ نستعمله ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به .
ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :
{ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [يوسف : 2] .

ليستنهض همة العقل ، ليفكر في الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس الذي يهمه أن يستر العقل جانباً؛ لينفُذَ من وراء العقل .

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته .

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس؛ لذلك فهو يدلس عليك ، ويُعمِّي عليك ، ولا يدع لك فرصة للتفكير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ . . . } .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)

حين يتحدث الحق سبحانه عن فعل من أفعاله؛ ويأتي بضمير الجمع؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة؛ يتطلب : علماً؛ حكمة؛ قدرة؛ إمكانات .

ومَنْ غيره سبحانه له كل الصفات التي تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك؛ لأنه سبحانه وحده صاحب الصفات التي تقوم بكل مطلوب في الحياة ومُقدَّر .

لكن حين يتكلم سبحانه عن الذات؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتي بصيغة الجمع ، يقول تعالى : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري } [طه : 14] .

وهنا يتكلم سبحانه بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدر عليها غيره؛ بالدقة التي شاءها هو سبحانه فيقول :

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . } [يوسف : 3] .

وحدد سبحانه أنه هو الذي يقصُّ ، وإذا وُجِد فعل لله؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التي عَلِمْناها في أسمائه الحسنى؛ لأنه الذات الأقدس .

وفي كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب؛ لأننا لا نعرف شيئا عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصَّاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشتق منه اسماً لله؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك .

والواجب أن ما أطلقه سبحانه اسماً نأخذه اسماً ، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً .

وهنا يقول سبحانه :

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . . } [يوسف : 3] .

ونعلم أن كلمة « قص » تعني الإتباع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، ومأخوذة من قَصَّ الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه مَنْ يبحث عنه .

واقرأ قول الحق سبحانه : { وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [القصص : 11] .

و { قُصِّيهِ . . . } [القصص : 11] أي : تتبعي أثره .

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة ، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه : { قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً } [الكهف : 6364] ، أي : تَابَعا الخطوات .

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل ، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع ، لا لَبْسَ فيه أو خيال؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث في القصص الفنِّيّ الحديث؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتِ خيالية من أجل الحَبْكة الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه .

أما قصص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكلُّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة؛ لأن القصة نوع من التاريخ .

والقصة في القرآن مرةً تكون للحدث ، ومرَّة تكون لتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم تَأْتِ قصة رسول في القرآن كاملة ، إلا قصة يوسف عليه السلام .

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبيت فؤاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فتأتي لقطة من حياة رسول ، ولقطة من حياة رسول آخر ، وهكذا .

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة مستوفية؛ فقد شاء الحق سبحانه أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها ، مُسْتوفية ، ففيها الحدث الذي دارتْ حوله أشخاصٌ ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث .

فقصة يوسف عليه السلام في القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط؛ بل جمعتْ نَوعَيْ القصة ، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات ، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث .

جاءتْ قصة يوسف بيوسف ، وما مَرَّ عليه من أحداث؛ بَدْءً من الرُّؤيا ، ومروراً بحقد الأخوة وكيدهم ، ثم محاولة الغواية له من امرأة العزيز ، ثم السجن ، ثم القدرة على تأويل الأحلام ، ثم تولِّي السلطة ، ولقاء الأخوة والإحسان إليهم ، وأخيراً لقاء الأب من جديد .

إذن : فقول الحق سبحانه :

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . } [يوسف : 3] .

يبيّن لنا أن الحُسْن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف ، لكن أحبار اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية؛ وإبراز المواقف المطْويَّة في النفس البشرية؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء في حَبْكة ذات أداء بياني مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هي أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عِبَر متعددة ، عِبَر في الطفولة في مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الأخوة ، والتمرد ، وإلقائه في الجبِّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف عليه السلام محبَّة منه؛ ليجعل كل مَنْ يلتقي به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة : { قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين } [يوسف : 92] .

وقالها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وهكذا تمتليء سورة يوسف بِعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها في قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم؛ لذلك فهي أحسنُ القَصص؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث .

أو : أنها أحسنُ القصص في أنها أدّتْ المُتَّحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمي ، الذي لا خبرة له بتلك الكتب؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتمِيل مُقْنع مُمْتع .

أو : أنها أحسن القصص؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الزمني؛ والعمر العقلي؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره؛ ضعيفاً؛ مغلوباً على أمره؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها .

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله .

يقول الحق سبحانه : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ

مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين } [يوسف : 3] .

والمقصود بالغفلة هنا أنه صلى الله عليه وسلم كان أُمّياً ، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المُبلّغ عن الله؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها .

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوحي قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : صدقْتَ .

وحين حدثتْ رحلة الإسراء؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها في ليلة؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق .

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هي التي دَلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحي .

مثال ذلك : تصديق خديجة رضي الله عنها وأرضاها له؛ حين أبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم ، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسِب المَعْدُوم ، وتَقْري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له صلى الله عليه وسلم في نبوته .

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات؛ كانت بعض العقول المعاصرة لرسول الله تقف متسائلة : كيف؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله » .

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه متسائلاً ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح : ألسْنا على الحق؟ عَلام نعطي الدَّنية في ديننا؟ ويرد عليه أبو بكر رضي الله عنه : استمسك بِغَرْزِه يا عمر ، إنه رسول الله .

أي : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس في ذلك انصياعٌ أعمى؛ بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين } [يوسف : 3] .

والغافل : هو الذي لا يعلم لا عن جهل ، أو قصور عقل ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله .

أو : أن يكون المقصود بقوله :

{ لَمِنَ الغافلين } [يوسف : 3] .

أي : أنك يا محمد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصة يوسف؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروي لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك .

بل أنت لم تَتَلقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وأخوة يوسف؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر؟

وكان ضَرْباً من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة ، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمدٍ صلى الله عليه وسلم هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أَوحى بها إليه .

والوَحْي كما نعلم هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحي للملائكة فيقول : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ . . . } [الأنفال : 12] .

وسبحانه يوحي إلى مَنْ يصطفي من البشر إلى صفوتهم؛ مصداقاً لقوله سبحانه : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قالوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } [المائدة : 111] .

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحي لأم موسى بأن تلقي طفلها الرضيع موسى في اليَمّ : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 38-39] .

ويوحي سبحانه إلى الأرض وهي الجماد ، مثل قوله الحق : { بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 5] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق : { وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً } [النحل : 68-69] .

والحق سبحانه يوحي لمن شاء بما شاء ، فالكل؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان؛ من خَلْقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرِّ خلقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ . . . } .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبي » ، ونجد في اللغة العربية كلمات « أبي » و « أبتِ » و « أبتَاهُ » و « أَبَة » وكلها تؤدي معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحظ لغوي .

ويستمر يوسف في قوله :

{ ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } [يوسف : 4] .

وكلنا رأينا الشمس والقمر؛ كُلٌّ في وقت ظهوره؛ لكن حلُم يوسف يُبيّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى؛ وأنه قام بعدِّهِم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعني أنه رآهم أولاً بصفاتهم التي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود؛ ثم رآهم وهم ساجدون له؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة : { سَاجِدِينَ } [يوسف : 4] وهي جمع مذكر سالم؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسْمَى ما في الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى .

مثلهم في ذلك مَثَلْ ما جاء في قول الحق سبحانه : { إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الانشقاق : 1-2] هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بناها .

وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ : { أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ } [ق : 6] وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه : { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الانشقاق : 2] .

أي : أنها امتلكت حاسة السمع؛ لأن « أذنت » من الأذن؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله؛ تنفعل وتنشق .

وهكذا نجد أن كل عَالَمَ من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه في اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها « جُوقة » من الانسجام

مُكَوَّن من إنسان مُسبِّح؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هي الجبال ، وهي من الجماد أدنى الكائنات .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ ياأيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير . . } [النمل : 16] وهكذا عَلِمْنا أن للطير منطقاً .
وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل؛ لأننا نقرأ قول الحق : { حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين } [النمل : 18-19] .
إذن : فلكُلِّ أُمَّة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف في رؤياه؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ يابني . . . } .

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)

وحين يُورِد القرآن خطاب أب لابن لا نجد قوله { يابني } وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب ، و « بُني » تصغير « ابن » .
أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابني » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان : { إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . . } [هود : 45] .
وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف؛ ومواقف أبيه منه .
وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلئ بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أيَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتي عليه أن يسمع كلمتي .
وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .
وحين يفزع يوسف مما يُزعِجه أو يُسيء إليه؛ أو أي أمر مُعْضَل؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه؛ وهو الأب؛ لأن الأب هو الأقدر في نظر الابن – على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه؛ قال يعقوب عليه السلام :

{ قَالَ يابني لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ } [يوسف : 5] .

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤيَ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية »؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع : فأنت ترى ما يراه غيرك؛ وأما « الرؤيا » فهي تأتي للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء في « رأى » والاختلاف في الحالة؛ هل هي حالة النوم أو حالة اليقظة . وفي الإعراب كلاهما مؤنث؛ لأن علامة التأنيث إما : « تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة » .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة التأنيث؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن حيث تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ به صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : { وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ } [الإسراء : 60] .

ولكن من يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع؛ بدليل أنه قال عنها : أنها « فتنة للناس » .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال : لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية؛ لذلك عَبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

{ قَالَ يابني لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ . . } [يوسف : 5] .

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلِم تأويل الرُّؤيا : وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها

يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها ، ولا بُدَّ حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .
فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ عَلِموا مثل هذه الرؤيا التي سيجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .
ولا يعني ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار؛ فهم الأسباط؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب عُلُو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التي تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .
والمثال على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب في أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ؛ ولكنه بعد قليل يفكر في تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامي .
أما الخَيِّر فهو قد يفكر في ضرب إنسان أساء إليه « علقة »؛ ولكنه يُقلِّل من التفكير في رَدِّ الاعتداء بأن يكتفي بالتفكير في ضربة صفعتين بدلاً من « العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عَمَّنْ أساء إليه .
وإخوة يوسف وهم الأسباط بدءوا في التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم : { اقتلوا يُوسُفَ . . . } [يوسف : 9] .
ثم هبطوا عن هذه الدرجة المُؤْلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادةِ محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا : { أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف : 9] .
وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجُبِّ لعل أن يلتقطه بعض السيَّارة . فقالوا : { وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة . . . }

[يوسف : 10] .
وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة؛ بل إنهم فكروا في نجاته .
وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :
{ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً . . . } [يوسف : 5] .
والكيد : احتيال مستور لِمَنْ لا تقوى على مُجَابهته ، ولا يكيد إلا الضعيف؛ لأن القوي يقدر على المواجهة .
ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم؛ لأن ضعفهن أعظم .
ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :
{ إِنَّ الشيطان لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } [يوسف : 5] .
وهذه العداوة معروفة لنا تماماً؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً؛ عكس آدم الذي قَبِل الله

توبته؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللهِ المخلصين .
ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم » .
ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة . أي : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ . . . } [الأعراف : 17] ولم يأت ذِكْر للمجيء من الفوقية أو من التحتية؛ لأن مَنْ يحيا في عبودية تَحتية؛ وعبادية فوقية؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .
ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام في هذه الآية :
{ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً } [يوسف : 5] ، ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَصْح نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعني أن الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى . أما { فَيَكِيدُواْ لَكَ . . . } [يوسف : 5] فتعني أن كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتي بالخير لك .
ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة : { كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ . . . } [يوسف : 76] أي : كدنا لصالحه .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ . . . } .

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

أي : كما آنسَك الله بهذه الرؤيا المُفْرحة المُنْبئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك؛ لا بأن يحفظك فقط؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .
ومعنى تأويل الشيء أي معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتي كطلاسم ، ولها شَفرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك؛ فهي ليست عِلْماً له قواعد وأصول؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .
وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض؛ حين يُوجد الجَدْبُ ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .
ويتابع الحق سبحانه :
{ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . } [يوسف : 6] .
فكل ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .
أو أن : { وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . } [يوسف : 6] .

بمعنى إلا تسلب منك النعمة أبداً؛ ففي حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : { وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . } [يوسف : 6] .

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك .

ويتابع الحق سبحانه :

{ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [يوسف : 6] .

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء فهم آلُ يعقوب؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عِزِّ يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافِقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ . . . } .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)

أي : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن « في » تدل على الظرفية ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شيء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمي؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أي : ممنوع من التنوين فلا نقول : في يوسفٍ .

و { يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ } [يوسف : 7]

وهذا يعني أن ما حدث إنما يُلفِت لقدرة الله سبحانه؛ فقد أُلقِيَ في الجُبِّ وأُنقِذ ليتربى في أرقى بيوت مصر .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، تلك الآيات الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه؛ فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية؛ لا بُدَّ أن تفكر في ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي بها الرسل؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذي انفلق وصار

كالطور العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود بها آيات القرآن الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

{ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ } [يوسف : 7] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفي كل ذلك سَلْوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتثبيت فؤاده؛ فلا يُعِير بالاً لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم في نَفْيه إلى الشام ، ومحاولتهم قَتْله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون في ظلال كَنفِه .

إذن : فلا تيأس يا محمد؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطئ نصر الله ، أنت ومَنْ معك ، كما جاء في القرآن . { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ } [البقرة : 214] .

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذي أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التي رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت في فترة زمنية تتراوح بين أربعين سنة وثمانين عاماً .

ولذلك نجد رُؤْيَا الخير يطول أَمَدُ تصديقها؛ ورُؤْيَا الشر تكون سريعة؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي ، لأنها لو ظلَّتْ دون وقوع لأمد طويل؛ لوقع الإنسان فريسةَ تخيُّل الشر بكُلِّ صوره .

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة؛ فيجعلك الله مُتخيلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتآويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون؛ حين قال : { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .

ويقول الحق سبحانه :

{ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ } [يوسف : 7] فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان في يوسف وإخوته آية للسائلين » أي : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية في آية واحدة ، مثلما قال : {

وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } [المؤمنون : 50] مع أن كلاً منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : { آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ } [يوسف : 7] .

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرَّضهم اليهود على أنْ يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العِبَر من الأمم السابقة ، وجاء الوَحْيُ لينزل على الرسول الأميّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذي لا يَقْوَى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هاتْ أنت أيَّ إنسان ليتكلم ثُلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] .

ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحفظ ما أُنزل إليه من ربه ، ويُمليه على صحابته ويصلي بهم؛ ويقرأ في الصلاة ما أُنزِل عليه ، ورغم أن في القرآن آياتٍ متشابهات؛ إلا أنه صلى الله عليه وسلم لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17] .

ومرة أخرى يقول : { إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] وكذلك قول الحق سبحانه : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الحجر : 45] .

وفي موقع آخر يقول الحق : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ } [الطور : 17] .

فكيف يتأتَّى لبشر أمي أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذي أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ . . . } .

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا عشر : سبعة من واحدة؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ ذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا . . } [يوسف : 8] .

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبّه لنا . والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في الجب؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .
وفي قولهم لَمْحة من إنصاف؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .
فيوسف وأخوه كانوا صِغَاراً وماتت أمهما؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذي أحسَّ بضرورة أن يَجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية .
وهذا أمر لا دَخْل ليعقوب فيه؛ بل هي مسألة إلهية أودعها الله في القلوب بدون اختيار؛ ويُودعها سبحانه حتى في قلوب الحيوانات .
وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة؛ فالقطة على سبيل المثال إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً؛ تهجم على هذا الذي اقترب من صغارها .
ولذلك نجد العربي القديم قد أجاب على مَنْ سأله « أي أبنائك أحب إليك؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى » .
وهذه مسألة نراها في حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها؛ والآخر يعيش على الكفاف أو على مساعدة أخيه له؛ ونجد قلبها دائما مع الضعيف .
ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغِضْ مَنْ شئتَ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .
اقرأ قول الحق سبحانه : { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى } [المائدة : 8] .
فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .
وقد يقول قائل : ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .
نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث؛ فقد قال عمر رضي الله عنه بوضوحه وصراحته وجراءته؛ دون نفاق : أحبك يا رسول الله عن مالي وعن ولدي أما عن نفسي؛ فلا ، فكرر النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .
ففطِنَ عمر رضي الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقديٌّ وتكليفي؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل كما نعلم هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلي؛ رغبةً منك في أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقله؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى المسلم في حُبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يصير حب الرسول في قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مباديء الحب العقلي والحب العاطفي .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضي الله عنه في نفس المسألة؛ حب العقل وحب العاطفة؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوي وجهك عني؟ قال عمر : لأنِّي لا أحبك ، فأنت قاتل أخي . فقال الرجل : أو يمنعني عدم حبك لي من أيِّ حق من حقوقي؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : « لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ تريد ، ولا يبكي على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى حب والدهم ليوسف وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤاخَذُ به الأب؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا أنصبَّ غضبهم على يوسف وحده؟

ويقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا أباهم في الاثنين يوسف وأخيه أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } [يوسف : 8] .

والعصبة من عدد عشرة فما فوق؛ والعصبة أيضاً هم المُتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات؛ وقد تقاعد أبوهم؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا في غَيِّهم ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم :

{ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 8] .

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بُدَّ أن يعطف عليهم الأب؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

{ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 8]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشي فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق . وسبحانه القائل : { أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى . . . } [البقرة : 282] .

وسبحانه القائل أيضاً : { وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى } [الضحى : 7] .

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه؛ ووصلوا إلى نتيجة ضارَّة؛ لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة؛ ولو أنهم مَحَّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوها :

{ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 8] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على ألسنة إخوة يوسف : { اقتلوا يُوسُفَ . . . } .

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل؛ فقالوا : { أَوِ اطرحوه أَرْضاً } [يوسف : 9] .

فكأنهم خافوا من إثم القتل؛ وظنوا بذلك أنهم سينفردون بحبِّ أبيهم؛ لأنهم قالوا : { يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف : 9] .

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود ب : { يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف : 9] ، هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : { وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ } [يوسف : 9] ، أي : أنهم يُقدِّرون الصلاح؛ ويعرفون أن الذي فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح؛ ولذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذي أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصيَ والكبائرَ .

أو : أن يكون المقصود ب : { قَوْماً صَالِحِينَ } [يوسف : 9] ، هو أن يكونوا صالحين لحركة

الحياة ، ولعدم تنغيص علاقتهم بأبيهم؛ فحين يخلُو لهم وجهه؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود ب : { قَوْماً صَالِحِينَ } [يوسف : 9] ، أن تلك المسألة التي تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً؛ فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم في الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ . . . } .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجب هو البئر غير المطوي؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت؛ وقد يأتي الردم فيسُدُّ البئر؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوي » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استطراق .

وكلمة : { غيابت الجب } [يوسف : 10] ، أي : المنطقة المخفية في البئر؛ وعادة ما تكون فوق الماء؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتَّى إلقاؤه في مكان مَخْفيٍّ مع قول أحد الإخوة : { يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة } [يوسف : 10] .

ونقول : إن في مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التي كانت مُتوقِّدة في اقتراح بعضهم بقتل يوسف؛ وفي هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة؛ وقال :

{ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] ، أي : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تَمَّتْ تصفية هذه المسألة؛ فلم يقف صاحب هذا الرأي بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه في الأرض؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : « لا تقتلوا يوسف » .

وفي نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

ويضيف :

{ وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] .
وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالُواْ ياأبانا . . . } .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خفَّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه ، وفي حضور الإخوة : { قَالُواْ ياأبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] .
وساعة تسمع قول جماعة؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأمَّنَ الباقون على كلامه؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .
ولكي يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .
قال موسى عليه السلام : { وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .
ورد الحق سبحانه على دعاء موسى : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . } [يونس : 89] .
والذي دعا هو موسى ، والذين أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .
وهكذا نفهم أن الذي قال :
{ ياأبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] .
تلك الكلمات التي وردتْ في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .
وقولهم : { مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] ، يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم في ذلك ، ولم يوافقهم الأب .
وقولهم : { وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] .
يعني أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرّ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعي أن يخاف عليه الأب .
ويستمر عَرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف : { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً . . . } .

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعي والعمل؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بعِلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف في أوان الطفولة؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب في مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف؛ وهي الرماية وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِي عن واجب ، أما اللهو فهو شغُلٌ يُلهِي عن واجب .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس؛ ويجلسون معاً؛ ثم يُؤذِّن المؤذن؛ ويأخذهم الحديث؛ ولا يلتفون إلى إقامة الصلاة في ميعادها؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة : لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ إِنِّي ليحزنني . . } .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13)

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فِراق يوسف لِقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

{ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } [يوسف : 13] وقال بعض الناس : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

{ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } [يوسف : 13] .

وهذا ليُرَبِّي فيهم مواجيد الأخوة التي تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرّ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ في ردِّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

{ قَالَ إِنِّي ليحزنني أَن تَذْهَبُواْ بِهِ . . } [يوسف : 13] .

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على يوسف ، ورَدُّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه : { قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ . . . } .

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم؛ كي يأذن في خروج يوسف معهم؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحِيطون به كعُصْبَة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون

كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ . . . } .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)

وقوله الحق :
{ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غيابت الجب . . . } [يوسف : 15] يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أَخْذٌ ورَدٌّ ، إلى أن استقروا عليها .
وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحي كما نعلم هو إعلام بخفاء .
وسوف يأتي في القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة في مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح؛ إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا .
وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظ إخوته هذا الوحي .
ونقول : إن الوَحْي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم؛ لأنهم قالوا له لحظتها : { إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ } [يوسف : 77] .
والمقصود بالوحي في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو إيناس الوَحْشة؛ وهو وارد إلهي لا يرده وارد الشيطان؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء؛ مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم .
والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنِسُ وحشته حين ألقاه إخوته في الجُبِّ الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التي درج فيها وأُنْسه بالبيئة التي اعتاد عليها .
فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف؛ ولكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمَّ من الذي كنت فيه؛ وأن غُرَمَاءك وهم إخوتك سوف يُضطَّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .
هذا من جهة يوسف؛ وجهة الجُبِّ الذي ألقوْه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وجآءوا أَبَاهُمْ . . . } .

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16)

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا بأخيهم ، وأخذوه وألقوْه في الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب؟

هذا هو الانفعال النفسي الذي لا تستطيع فطرة أن تثبته؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلُّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث؛ بل بحديث مُخْتلق .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَر للفضائح؛ وحين ندخل على أبينا عِشَاءً؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم :

{ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ } [يوسف : 16] .

والبكاء انفعال طبيعي غريزي فطريّ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتي ببعض ريقه ويُقرّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء خافتاً؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثّلون البكاء .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذي يميت ويحي ، وهو الذي يُضحك ويُبْكي .

والحق سبحانه هو القائل : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [النجم : 43-44] .

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرنسي؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك؛ فهو يتضاحك؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى؛ أي : يفتعل الضحك أو البكاء . والذي يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف؛ والمثل في سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة؛ وعَزَّتْ عليه نفسه؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركوني » .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم : { قَالُواْ ياأبانآ . . . } .

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)

كلمة : { نَسْتَبِقُ } [يوسف : 17] تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات في حركة ما؛ لنرى من سيسبق الآخر؛ فحين يتسابق اثنان في الجري نرى مَنْ فيهما سبق الآخر؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بآلة؛ كان يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف؛ ويأتي آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف؛ ومَنْ يسبق منهما في إصابة الهدف يكون هو المتفوق في هذا المجال .

وقد يكون الاستباق في الرمي بالسهام؛ ونحن نعرف شكل السهم؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِنٍ ، يلتوي دون أن ينكسر؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم في منتصف الوتر ، ليشده الرامي فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمي ، ويسمى ذلك « تحديد الهدف » .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التي يقطعها السهم؛ فهذا لقياس قوة الرامي .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة؛ وكل ذلك حلال؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهِيه عن واجبه؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال؛ واللعب الذي لا يَنْهي عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوَّانِ؛ وبينهما قنبلة موقوتة؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهِي لعب الكرة عن واجب؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، والوَاجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

{ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا . . . } [يوسف : 17] .

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذِنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا : { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ } [يوسف : 12] .

وقالوا : { وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] .

وقالوا : { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 12] .

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون . وهذا أول الكذب الذي كذبوه؛ وهذه أول مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معكم؛ ولأن « المريب يكاد يقول خذوني » نجدهم قد قالوا :

{ فَأَكَلَهُ الذئب وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف : 17] .

أو : أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدِّقهم مهما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل « آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق : { وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 4] .

أو : تجئ بالباء ، ويُقال « آمن به » أي : صدَّق واعتقد .

أو : يُقَال « آمن له » أي : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَجَآءُو على قَمِيصِهِ . . . . } .

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)

كأن قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُرٍ لحظة أنْ جذبتْه امرأة العزيز لتراوده عن نفسه .

وفي آخر السورة يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من علي ، فقيل « قميص عثمان » رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَجَآءُو على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } [يوسف : 18] ، وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطي الوصف المصدري للمبالغة؛ وكأن الدم نفسه هو الذي كذب؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عَدْل » أي : كأن العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شر » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة في الحديث .

وهل كان يمكن أن يُوصف الدم بأنه صادق؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ في تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكُنْ أنيابه قد مزَّقَتْ القميص؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم؛ أشار أحدهم خفية للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه؛ وهذا ما تقوله كتب السير .

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة التي يتحلى بها أيُّ محقق في قضية قتل؛ حين يُقلِّب أسئلته للمتهم وللشهود؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحي أقواله من واقع؛ بل يستوحي أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً » .

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

{ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] .

« والسَّوَل » : هو الاسترخاء؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه مشدودة؛ ثم يحب أن يسترخي ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئا من اليُسْر في بدنه ونبضه .

ونأخذ { سَوَّلَتْ . . . } [يوسف : 18] هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

{ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . . } [يوسف : 18] .

والذين يحاولون اصطياد خطأ في القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورِث إيلاماً؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر عن كذا » إذا كان الصبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً } [المزمل : 10] .

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه؛ وقد بيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل : { إِنَّمَآ أَشْكُو بَثّي وَحُزْنِي إِلَى الله . . . } [يوسف : 86] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

{ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . } [يوسف : 18] ، ويتبعها : { والله المستعان على مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] ، كأن الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له؛ فكيف يُصدِّق الكذب؟ وكيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم؟ وهم أيضاً أبناؤه؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قِيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسِي تأساء وتعزيةً ... إحدى يديَّ أصَابتْنِي ولم تُردِ

كِلاهُمَا خلف عَنْ فَقْدِ صاحبِه ... هذا أخي حين أدعُوه وذَا ولدِي

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين؟

إنها مسألة تعزُّ على خَلْق الله؛ ولابد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله؛ ولذلك علَّمنا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة؛ وحزبه أمر ما يعني : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان؛ فيلجأ إلى المُسبِّبِ الأعلى؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

{ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] .

وقوله : « تصفون » يعني : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ . . . } [النحل : 116] .

أي : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول : { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ } [الصافات : 180] .

وتعني أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

{ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] .

وهكذا عبّر يعقوب عليه السلام عن نفسه؛ فالجوارح قد تكون ساكنة؛ لكن القلب قد يزدحم

بالهموم ويفتقد السكون؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول في فاتحة الكتاب : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5] .

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها : لذلك تستعين بخالقك لتُخلِص في عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتي لموقف يوسف عليه السلام في الجُبِّ .

يقول سبحانه : { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ . . } .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19)

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر؛ ليأتي لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه في البئر؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف في الحبل؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء؛ ونظر إلى أسفل؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

{ يابشرى هذا غُلاَمٌ } [يوسف : 19] .

أي : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك؛ وكأنه يبشر قومه بشيء طيب؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه : { وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً } [يوسف : 19] .

أي : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشي بجانبهم؛ خشية أن يكون عبداً آبقاً ويبحث عنه سيده؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

{ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [يوسف : 19] .

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة؛ وهم الذين عرضوه للبيع . ثم يقول الحق سبحانه : { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ . . . } .

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أي : أنهم باعوه بثمن بخس؛ أي : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أي : النقص ، وهو إما في الكم أو في الكَيْف؛ فهو يساوي مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط؛ وكان العبد في عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كَمّاً وإما كَيْفاً .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

{ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين } [يوسف : 20] ، والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أي شيء يأتي من ورائه فهو فائدة لنا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ الذي اشتراه . . . } .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)

وكان للشراء عِلَّة؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً؛ فقد يقع المحظور وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [يوسف : 21] .

وهذا يعني أن تعتني بالمكان الذي سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضي أن تعتني بالولد نفسه؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفْع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع؛ وهو غير نفع الموظفين

العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر ، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه؛ وكإنسان تربَّى في بيت الرجل؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحَمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

{ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [يوسف : 21] .

وقد عَلِمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 21] .

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة؛ وليعلمه الله تأويل الحديث؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والأحلام؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب؛ وأن مراد الله قد غلب؛ بإكرام يوسف؛ وهم لو علموا ذلك لَضَنَّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو عَلِم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

{ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ . . . } [يوسف : 21] .

فهذا قول نافذ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره؛ فهو وحده الذي له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شيء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قَيُّوم؛ لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلِمُوا أن الله يُمْلِك بحق مَنْ يُظلم فوق إلى ظَلمه .

ورأينا في حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . . } .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } [يوسف : 22] أي : وصل إلى غايته في النُّضْج والاستواء؛ ومن كلمة « بلغ » أخذ مصطلح البلوغ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أن يبلغ أشده؛ ويصير في قدرة أن

ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش في بيت ممتليء بالخيرات؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم؛ ستتولد فيه رعونة؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين؛ حق وباطل؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذي يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذي سيكون منه تأويل الرؤى ، وغير ذلك من العلم الذي سوف يظهر حين يولى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أشده وحرسه الحق بالحكمة والعلم . ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

{ وكذلك نَجْزِي المحسنين } [يوسف : 22] .

وكل إنسان يُحسِن الإقامة لِمَا هو فيه؛ يعطيه الله ثمرة هذا الحُسْن ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَرِ الله أن جعله فقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقِن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدري ، وأحسنت عملك؛ فخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

{ وكذلك نَجْزِي المحسنين } [يوسف : 22] .

لا ينطبق على يوسف وحده؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَرِ الله؛ لأنه سبحانه ساعة يأتي بحُكْم من الأحكام؛ وبعد ذلك يعمِّم الحكم؛ فهذا يعني أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا في مناسبة بعينها ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . } [يوسف : 22] .

يوحي لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة ، وهنا بدأت متاعبه في القَصْر ، ففي طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التي تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه؛ وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان بالعاطفة المشبوبة ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتي النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا عِلَّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدرَكتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت في النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عربدتَ في أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدِي النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه في قوله تعالى

: { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بني إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . } [النور : 31] .

أي : الذي بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر في الرغبة في النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو في فتوته ، بعد أن بلغ أَشُدَّه نظرةً مختلفة ، يوضحها الله تعالى في قوله : { وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ . . . } .

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

وساعة تسمع « راود » فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فَاعَل » أو « تَفاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أي : أن علياً شارك محمداً؛ ومحمد شارك علياً؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُرَاودة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده مِمَّنْ تريده؛ فإنْ كان الأمر مُسهَّلاً ، فالمُراودة تنتهي إلى شيء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف الثاني بعد أن عرفَ المراد؛ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصبو إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبته برفق ولين في أسلوب يخدعه لِيُخرِجه عمَّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أَشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضر لها شيئاً؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً؟ » وتَدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك؛ لأنه في بيتها؛ وهي مُتمكِّنة منه؛ فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات؛ فهو قد تربَّى في بيتها؛ وهي التي تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب رَاقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى : { وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأبواب . . . } [يوسف : 23] .

وكلمة : { وَغَلَّقَتِ الأبواب . . . } [يوسف : 23] .

توضح المبالغة في الحدث؛ أو لتكرار الحَدث ، فهي قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج لنؤكد غَلْق الباب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غَلْق الباب .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب؛ وإذا أضفنا مِزْلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب

واحد؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلّقنا الباب .
وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فَقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب لِيَلقى العظيم الذي جاء ليقابله .
يحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .
هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب أنها أُبهة ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر .
وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنَّ عليه بمناداته كأمير المؤمنين ، وقال بصوت عال :
« السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .
ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فِعْله ، وهي قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجِبْ لها .
{ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . . . } [يوسف : 23] أي : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل؛ بأن قالت : تهيأتُ لك؛ وكان ردُّه :
{ قَالَ مَعَاذَ الله . . . } [يوسف : 23] .
والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذي تمرُّ به عَلَّك تجد مَنْ ينجدك؛ فكأن المسألة قد عَزَّتْ عليه؛ فلم يجد مَعَاذاً إلا الله .
ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .
ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من « أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد على ابنة ملكٍ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبي بالغيرةَ منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضي الله عنها : إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولي » أعوذ بالله منكِ « .

فغادرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : » قد عُذْتِ بمعاذ « وسرَّحها السراح الجميل » .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً : { إِنِي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً } [مريم : 18] .

فهي استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون } [يوسف : 23] ، وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته؛ ونجَّاه من الجُبِّ؛ وهيَّأ له أفضل مكان في مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدَّه . وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : { أَحْسَنَ مَثْوَايَ } [يوسف : 23] .

ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها : { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [يوسف : 21] .

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرِم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستَقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : { إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } [يوسف : 23] .

قد يعود على الله سبحانه؛ وقد يعود على عزيز مصر .

وتلك مَيْزة أسلوب القرآن؛ فهو يأتي بعبارة تتسع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذي يُجازي على الإحسان ، وهو مَنْ قال في نفس الموقف : { وكذلك نَجْزِي المحسنين } [يوسف : 22] فمعنى ذلك أن مَنْ يسيء يأتي الله بالضد؛ فلا يُفلح؛ لأن القضيتين متقابلتان : { وكذلك نَجْزِي المحسنين } [يوسف : 22] .

و { لاَ يُفْلِحُ الظالمون } [يوسف : 23] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . . . } .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

والهَمُّ هو حديث النفس بالشيء؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه . ومن رحمة ربنا بخلْقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها؛ ولم يفعلها كُتِبتْ له حسنة .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ، والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مفاعلة بين اثنين يصطرعان في شيء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } [يوسف : 24] .

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين قالت : « هيت لك » وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً؛ وتساوى في حديث النفس؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها؛ لأننا نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون؛ إن الهم قد وُجِد منه؟

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بها؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنّين أو خَصَاه موقف أنها سيدته فخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهِمّ بها؛ لكان المانع من الهَمّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طاريء لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً وهو قد بلغ أشُدَّه ونُضْجه؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يَقربَ عروسه؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمّ على الإطلاق؛ ومن غير شيء ، لَقَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمّ راجعاً إلى نقص ما؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجِد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في

بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها؛ فقد تطرده الأسرة من العمل؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } [يوسف : 24] .

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمّ ، فواحد هَمّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهي المسألة ، ولذلك فلا داعي أن يدخل الناس في متاهات أنه هَمّ وجلس بين شعبتيها ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل؛ فأفسقُ الفُسّاق ولو تمثَّل له أبوه وهو في مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأي؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة يوسف؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأي : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان؟ .

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم : امرأة العزيز؛ ويوسف والعزيز نفسه؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفِكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتي دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

وقال يوسف نفسه : { هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي } [يوسف : 26] وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لِمَا قال : { وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم } [يوسف : 32] .

وقالت : { الآن حَصْحَصَ الحق أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّيَ لَمْ أَخُنْهُ بالغيب } [يوسف : 51-52] .

وعن النسوة قال يوسف : { مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [يوسف : 50] .

وقال يوسف لحظتها : { وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين } [يوسف : 33] .

والصَّبْوة هي حديث النفس بالشيء؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة؛ لأن الحق سبحانه قد قال : { فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ } [يوسف : 34] .

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقُلْنَ : { مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] ، فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات؛ وللانفعال لغات؛ وإلا لماذا قال يوسف : { وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ } [يوسف : 33] .

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوَيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده؛ فيتلقفنه هُنَّ؛ وهذا دَأب البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودتْ يوسف عن نفسه؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول : { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين } [يوسف : 29] .

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أَجبْنَ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ : { مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء } [يوسف : 51] .

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغُواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83] .

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز هو كشيطان عَن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال : { وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ } [يوسف : 27] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حَقِّ أحد أن يتساءل : هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يَهِمّ؟

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

{ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } [يوسف : 24] .

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل } [النساء : 165] .

أي : لا بُدَّ أن يبعث الحقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدِّقون المنهج الذي يسيرون عليه؛ كي يعيشوا حياتهم بانسجام إيماني ، ولا يعذبهم الله في الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

{ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السواء والفحشآء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين } [يوسف : 24] .

والفحشاء هي الزنا والإتيان؛ والسوء هي فكرة الهَمّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودتْه عن نفسه؛ وخرجت بالفعل إلى مرحلة السُّعَار لحظة أن سبقها إلى الباب؛ فكَّرتْ في أن تقتله؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل .

فصرف الحق عنه فكرة القتل؛ وعنى بها هنا قوله الحق « السوء »؛ ولكني اطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمّ ، وهي مُقدِّمات الفعل .

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده المُخْلصين ، وفي هذا رد على الشيطان؛ لأن الشيطان قال : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 83] .

وقوله الحق هنا :

{ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين } [يوسف : 24] يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرب عباد الله المخلصين . وهناك « مُخْلِصِين » . و « مُخْلَصِين » والمخلِص هو مَنْ جاهد فكسب طاعة الله ، وَالمُخْلَص هو مَنْ كسَب فجاهد وأَخلصه الله لنفسه .

وهناك أُناس يَصِلُون بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهناك أُناس يكرمهم الله فيطيعون الله ولله المثل الأعلى مُنزَّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشي في الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أي : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأَخْذٍ ورَد؛ ينتقل بنا الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى : { واستبقا الباب . . . } .

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر؛ وتسابقا في هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقَتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

{ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الباب } [يوسف : 25] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير؛ وهي قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدَّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب؛ فشدَّته من قميصه من الخلف ، وتمزَّق القميص في يدها

، وقد محَّص الشاهد الذي هو من أهلها تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

{ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الباب } [يوسف : 25] .

أي : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز؛ ويوسف؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

{ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سواءا } [يوسف : 25] .

ثم حددت العقاب :

{ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [يوسف : 25] .

ويأتي الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام : { قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ } [يوسف : 26] .

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْنِ مختلفين؛ قولها هي باتهام يوسف؛ وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتي بمَن يفصِل بين القولين ، وأن يكون له دِقَّة استقبال وفَهْم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه : { قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي . . . } .

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26)

وتأتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعانٍ متعددة .

فهي مرَّة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه : { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2] .

وتأتي مرَّة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه : { وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا } [يوسف : 81] .

وتأتي « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أي : رجَّح كلاماً على كلام لاستنباط حق في أحد الاتجاهين . والشاهد في هذه الحالة وَثّق القرآنُ أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

{ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ } [يوسف : 26] .

لأن معنى هذا والواقع لم يكن كذلك أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها؛ تدلَّى منه ثوبه

على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزَّق القميص . ويتابع الله قول الشاهد : { وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ . . } .

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)

أي : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأي قبل أن يشاهد القميص؛ بل وضع في كلماته الأساس الذي سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه : { فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ . . . } .

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى : { فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ . . . } [يوسف : 28] ، يدلُّ على أنه رتّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً في غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هي الحكم في القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

{ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] .

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج : { يُوسُفُ أَعْرِضْ . . . } .

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعي عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يُقِرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر لِيَكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعض أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده في عصرنا أيضاً؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أن يرى أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله في مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا مَلْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين

والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

{ أَعْرِضْ عَنْ هذا . . . } [يوسف : 29] .

ويقول لزوجته :

{ واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين } [يوسف : 29] .

وهو في قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع؛ وهو لن يُقِرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لاَ يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس عليها ، وألسنة تتكلم بها؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة .

ويحكي القرآن الموقف قائلاً : { وَقَالَ نِسْوَةٌ . . } .

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30)

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفردَ كلٍّ منهما ساقط في اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثنى هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة : { امرأة العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ } [يوسف : 30] .

وما قُلْنَه هو الحق؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفي وراء هذا القول في الآية التالية حين قال : { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . . . } [يوسف : 31-32] .

والمكر هو سَتْر شيء خلف شيء ، وكأن الحق يُنبّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنّكاية بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن أيضاً شيئاً آخر؛ أن يُنزِلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأتيْنَ بنقيضين؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهي امرأة العزيز ، أي : أرفع شخصية نسائية في المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذي لا يُغلب؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعاني الحسية .

فيُقال : « الأرض العَزَاز » أي : الأرض الصخرية التي يصعب المشي عليها ، ولا يقدر أحد أنْ يطأها؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامرأة العزيز حين تصير مُضْغة في الأفواه؛ لأنها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه؛ وهو بالنسبة لها في أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية مشينة .

وقالت النسوة أيضاً :

{ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً } [يوسف : 30]

والحب منازل؛ وأول هذه المنازل « الهوى » مثل : شقشقة النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهواه » .

وقد ينتهي هذا الهَوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة .

وبعد ذلك يأتي الكلف؛ أي : تكلَّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهي العشق ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »؛ أي : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال « تبلت الفؤاد » أي : تاه الإنسان في الأمر .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الهُيَام ، أي : يهيم الإنسان على وجهه؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه « جوى » .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب ، والقلب كما نعلم هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مَقَرّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمُّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور؛ فهو يعرضها على العقل ليوازن بينها؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية؛ فقد تأتي مسائل أخرى تزحزحها؛ ولذلك يُقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان؛ فهو يجعل كل حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمرُّ العقيدة بعدَّة مراحل قبل أن تستقر في النفس ، فالإدراك يحدث أولاً؛ ثم التعقُّل ثانياً؛ وبعد ذلك يعتقد الإنسان الأمر ، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وِفْقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : { شَغَفَهَا حُبّاً . . } [يوسف : 30] .

تعني أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشغاف هو الغِشَاء الرقيق الذي يستر القلب؛ أي : أن الحب تمكَّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

{ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 30] .

هو قول حَقٍّ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مَقْصِدهن : { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ . . . } .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر؛ إنسان له علاقتان؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر .

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقي ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أي : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن؛ فمَنِ الذي نقل لَهُنَّ أسرار القصر؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر؛ وكيف يمكرن بها؛ أرسلت إليهن :

{ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً . . } [يوسف : 31] .

والمتكأ هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ من كيفية جِلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططتْ لتكشف وَقْعَ رؤية يوسف عليهن ، فقدَّمتْ لكل منهن سكيناً؛ وهو ما يوحي بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

{ وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ . . . } [يوسف : 31] .

ويُقال : أكبرْتَ الشيء ، كأنك قد تخيَّلته قبل أن تراه على حقيقته؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً؛ تكبر المرائي عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاءلةُ الرُّكْبانِ تُخبِرني ... عن جَعْفرِ بنِ حبيبٍ أصدقَ القيم

حتَّى التقيْنَا فَلا واللهِ مَا سَمِعتْ ... أُذني بأطيبَ مِمَّا قَدْ رأى بَصَرِي

ويقولون في المقابل : سماعك بالمعيدي خير من أن تراه . أي : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه؛ لأن رؤيتك له ستُنقِص من قدر ما سمعت .

وهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رأَيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعتْ كلٌ منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

{ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } [يوسف : 31] .

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول؟

ويتابع سبحانه :

{ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] .

وكلمة : { حَاشَ . . . } [يوسف : 31] .

هي تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالي ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفنها؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه مَلَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هي صورة مُتخيَّلة؛ والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها في خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة في أواسط أفريقيا في نظر الرجل هي ذات الشفاه الغليظة جداً؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل في بعض الحالات؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْن إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل « كل فُولة ولها كَيَّال » .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هَواها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني .

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول؛ ويُظهِر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفسَ المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام؛ قُلْنَ :

{ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] .

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً عليهن : { قَالَتْ فذلكن . . . } .

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : { فذلكن } [يوسف : 32] ، مُكوَّن من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذلِكُنَّ » خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

وهنا موقف أسلوبي؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب لِيُقْرأ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً

محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه : { والطور * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * والبيت المعمور } [الطور : 1-4] .

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده في الرسالة التي كتبها ابن زيدون مُسْتعطفاً ابن جهور : « هذا العَتْب محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدي إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه في اغتفاله .

فإنْ يَكُن الفعلُ الذي سَاء واحداً ... فَأفْعالُه اللاتي سَرَرْنَ أُلوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعري على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق في الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي } [يوسف : 32] .

فهي موزونه من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق : { والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النور : 46] .

وأيضاً قوله الحق : { نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّيۤ أَنَا الغفور الرحيم } [الحجر : 49] .

وتأتي تلك الآيات في مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذي قاله الله نَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشاز فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتَّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهْك أحد لِمَا في بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام البشر؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون؛ ثم انتقلت إلى المنثور؛ أحسَّتْ أُذنك بهذا الانتقال؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

{ قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم } [يوسف : 32] .

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه » استعصم « ، وهذا يعني أنه قد تكلَّف المشقة في حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

{ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين } [يوسف : 32] .

قالت ذلك وكأنها هي التي تُصدِر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته؛ تعلن لهُنَّ أنه إن لم يُطِعْها فيما تريد؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتي سَمِعْنَها؛ فقد طمعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر؛ حتى تنفرد أي منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام : { قَالَ رَبِّ . . . } .

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

{ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ } [يوسف : 33] .

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت : { وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ } [يوسف : 32] .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشاراتٍ أو غمزات تُوحي له بألاّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد امرأة العزيز في جمع النسوة اللاتي جمعتُهنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتي طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته ، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دَلَّتْ يوسف على المراد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفيةً بأنه سيُجزل له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشي أن يضيع منه أيُّ شيء من العطايا؛ لذلك قام بهجاء نفسه؛ وقال :

ألا أبلغْ لدَيْك أباَ دلامة ... فليسَ منَ الكِرامِ ولاَ كرامه

إذَا لَبِسَ العِمَامةَ كان قِرداً ... وخِنْزِيراً إذا خلَع العِمَامه

وهكذا خرج من قسم الأمير؛ وكسب العطايا التي وعده بها من حضروا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد يوسف عليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع

النسوة؛ فقال :

{ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ } [يوسف : 33] .

أي : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرِّر نفسه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

{ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين } [يوسف : 33] .

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلْ يوسف « يا إلهي » وهو يعلم أن مناط التكليف في الألوهية ب « افعل » و « لا تفعل »؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه؛ لأنه هو جَلَّ وعلا مَنْ ربَّاه وتعهّده؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كيدهُنَّ؛ لاستجاب لغوايتهن ، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُرِيّ الأول . لتأتي الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق : { فاستجاب لَهُ . . . } .

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)

وهكذا تفضَّل عليه الله الذي خلقه وتولّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ؛ الذي تمثل في دَعْوتِهِنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعتْه إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التي تمثلت في قول الملك من بعد ذلك : { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء . . . } [يوسف : 51] .

وهكذا أنجاه الله من مَكْر النسوة؛ وهو جَلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء ، ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ بَدَا لَهُمْ . . . } .

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

وبعد أن ظهرتْ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف في الفعل الفاضح معها ، دون

خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام في السجن؛ ليكون في ذلك فَصْلٌ بينه وبينها؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : { لَيَسْجُنُنَّهُ } [يوسف : 35] .

فيها نوع من استبقاء الحب الذي يُكِنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن كما نعلم هو حَبْس المسجون لتقييد حركته في الوجود؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شرّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجترىء على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة؛ وله غلبة؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَّان؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه؛ ومعهم المأكولات؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين عزل المجتمع الإيماني عن السجين ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يُكلِّم أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر صلى الله عليه وسلم بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف في السجن؟

يقول الحق سبحانه : { وَدَخَلَ مَعَهُ السجن . . . . } .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ، وقِيلَ : إنهما الخبَّاز والساقي ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بِطَانة عزيز مصر في التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى؛ هي فَضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز؛ وأن الساقي والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمّ للعزيز .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك

يوسف كواحد من المحسنين .
وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، وغير آمن على غَدِه؛ ولذلك اتجها إليه في الأمر الذي يُهمهم :
{ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] .
ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين؛ فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثاني أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما أو كُلٌّ منهما على حِدَة يطلبان تأويل الرؤيتين المناميتيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذي رأياه .
وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :
{ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] .
وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .
فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أيّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .
ونجد اللص على سبيل المثال لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .
إذن : إنْ أَردتَ أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسَلْباً .
والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إن نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .
هنا ستجد الميزان ميزانك للأمور وقد اعتدل .

وإذا أردتَ اعتدال الميزان في كل فعل؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .
وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك؛ بل ضيّق

حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير؛ والفعل الصادر من الغير عليه؛ بل ينظر إليهما معاً؛ فما استقبحه من الغير عليه؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعَلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة؛ لا لقضاء حاجتهما منه؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحساني؟ هل رأيتم حُسْن معاملتي لكم؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختياري للحَسَن من القول؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي بفضل الله ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية : { قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا . . . } .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37)

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مخفية ، وكأنه يُنمي فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أيّ طعام يُرزَقانِه قبل أن يأتي هذا الطعام .

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عِنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما السجينان يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسناً الإيمان بالله . ولذلك يتابع الحق سبحانه : { ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّيَ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف : 37] .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هِبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسان ما مَخِيلَة خير فَلْينمي هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة؛ ولكي يُطمِع العباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام : { واتبعت مِلَّةَ . . . } .

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك مِلَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادي ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه؛ ولذلك ما كان لِمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعني اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه : { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] .

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله هكذا أوضح يوسف عليه السلام أن أنزل منهجه على الأنبياء؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ لِيُبلغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ } [يوسف : 38] .

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : { لاَ يَشْكُرُونَ } [يوسف : 38] اعلم أن الأمر الذي أنت بصدده هو في مقاييس العقل والفطرة السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذي بلَّغوه عن الله؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين : { ياصاحبي السجن . . . } .

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)

وكلمة « صاحب » معناها ملازم؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذي يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذي جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

وطرح يوسف السؤال :

{ ءَأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار } [يوسف : 39] وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل

لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة؛ وكان المفروض في مقاييس الأشياء أن تُغنِيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِي ويُضخِّم العمل ، لكن في الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفي يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه . ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن :

{ ءَأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ . . . } [يوسف : 39] .

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذواتٍ لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تَكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعني أن لكل منهم نقطةَ قوة ونقاطَ ضعف؛ وتفرُّقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الزمر : 29] .

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عباد الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه : { مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ . . . } .

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)

ونلحظ أن يوسف عليه السلام لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤيَتَيْنِ ، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً؛ لانصرف ذِهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء حاجتهما منه؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه؛ ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبْقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهري قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التي يسألانِ فيها؛ وأراد أن يُصحِّح نصرة الاثنين إلى المنهج العام الذي يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها؛ وفي هذا إيثار لا أثرة .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ . . . } [يوسف : 40] .

أي : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذِّهْن؛ ولذلك نسمي المولود بعد ولادته باسم يُمَيِّزه عن بقية إخوته؛ بحيث إذا أُطلِق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

وإذا أُطلق اسم واحد على متعددين؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمَثل من الريف المصري؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد »؛ فيسمِّي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُمَيِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لمُسمَّى غير موجود؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمَّى .

ويأتي هؤلاء يوم القيامة؛ ليُسألوا لحظة الحساب : { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين } [غافر : 73–74] .

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ } [يوسف : 40] . وكأن يوسف يتساءل : ءَإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذي لا مُسمَّى له؟ وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمَّى؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا مُسمَّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزِل معهم المنهج الذي يوجز في « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمَّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام في وَصْف تلك الأسماء التي بلا مُسمَّيات ، فيقول :

{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مَّآ أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ } [يوسف : 40] .

أي : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

{ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . . } [يوسف : 40] .

أي : إنني والكلام ليوسف إن قلتُ شيئاً فلأنِّي ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتي؛ ولا من عندي؛ ولا عن هواي؛ لأنه هو سبحانه الذي أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أي : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله في منهجه الهادي للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

{ ذلك الدين القيم ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 40] .

أي : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ، ولكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه : { ياصاحبي السجن . . . } .

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقي الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه؛ وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهي قدرة على فَكِّ شَفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال : { إِنِي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً } [يوسف : 36] .

أنه سوف ينال العفو ما أظهرته الرؤيا التي قالها ، وأما الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أي : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبي الرؤييين .

وهذا دليل على أن القاضي يجب أن يكون ذهنه مُنصبًّا على الحكم؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذي سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضي لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا في قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام : { وَهَلْ أَتَاكَ

نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب * إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط * إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص : 21-24] .

وكان من ذكر عدد نِعَاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لِصفِّه؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذي وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذي ظلم؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق في الحكم؛ لأنه ذكر في حيثية الحكم نعاج الذي أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذي أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

{ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [يوسف : 41] .

أي : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهي أكبر أولاده؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده؛ فذهب إليها وقال لها : سلِّمي إليَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه اكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجاري أنه إذا سرق أحد شيئاً وتَمَّ ضبطه؛ تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذي أعطاه لها والدها إسحق؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم أي عبد وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقي يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لِغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن؛ ويقول الرواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير أي تأويل الرؤيا والإحسان إلى أهل السجن .

ولما دخل هذان الفَتيانِ معه السجن؛ تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما؛ إنه ما من أحد أحبَّني إلا دخل عليَّ من محبته ضررٌ ، أحبتني عمَّتي فدخل الضرر بسببها ، وأحبَّني أبي فأوذيتُ بسببه ، وأحبَّتني امرأة العزيز فكذلك .

أي : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جَنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن : { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ . . . } .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذي فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو؛ ويواصل مهمته في صناعة الخمر لسيده .

وقوله سبحانه :

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ . . } [يوسف : 42] .

يعني أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

{ اذكرني عِندَ رَبِّكَ . . . } [يوسف : 42] .

والذكر هو حضور شيء بالبال؛ وكان له بالبال صِلَة استقبال ، مثل أي قضية عرفتَها من قبل ثم تركتَها ، ونسيتَهَا لفترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهي لا تظل في بُؤْرة الشعور كل الوقت؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد في بؤرة الشعور .

والمثل الذي أضربه دائماً هو إلقاء حجر في الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتي ما يُذكِّرك بما في حاشية الشعور؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذي كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُسْتويين؛ فهي تحفظ المعلومات؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

{ اذكرني عِندَ رَبِّكَ . . } [يوسف : 42] .

أي : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول؛ شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسِّط الغير في مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله : { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي } [يوسف : 37] .

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

{ فَأَنْسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ } [يوسف : 42] .

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعِين الحق على مُرَاداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ الملك . . . } .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)

والأرض التي وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هي مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه : { وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ } [يوسف : 21] .

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية؛ عرفنا أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمَّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع

الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .
وحديث القرآن عن وجود مَلِك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .
وساعة تقرأ :
{ وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ } [يوسف : 43] .
ثم يطلب تأويل رؤياه؛ فهذا يعني أنها رُؤيا منامية .
وكلمة : { سِمَانٍ } [يوسف : 43] .
أي : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة { عجاف } أي : الهزيلة؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عظمها »؛ فكيف تأكل العجاف السمان؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً؟
وأضاف الملك :
{ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ . . . } [يوسف : 43] .
ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :
{ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } [يوسف : 43] .
وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أي : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوي في الرُّؤيا .
ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العبْرة » ، وهي التجربة التي نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارَة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهِره بالعبارة .
ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمعْة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .
وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤْيا حين يَعبُر من خلال رموزها من الخيال إلى الحقيقة .
ولم يعرف الملأ الذين حول المَلِك تفسيراً للرُّؤيا التي رآها في منامه .
ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : { قالوا أَضْغَاثُ . . . } .

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44)

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى . و « الضِّغْث » هو حِزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .
وهذا صِدْق من البطانة في ألاَّ يخبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذي يعلن جهله بأمر لسائله ويكون قد علمه يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب؛ فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق في الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدري فقد أفتى »؛ لأنه حين يقول « لا أدري »؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ الذي . . . } .

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)

وكان الذي نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه في السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

وقوله : { وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ . . } [يوسف : 45] .

يعني : أنه أجهد عقله وذهْنه؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مَرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعني فترة من الزمن؛ كما في قول الحق تبارك وتعالى : { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [هود : 8] .

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه في وصف إبراهيم عليه السلام : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120] .

أي : أن كل خصال الخير مجموعة في إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقي الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هي بضع سنين؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلَها له يوسف ، قال الساقي للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

{ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } [يوسف : 45] .

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : { فَأَرْسِلُونِ } [يوسف : 45] .

يعني أن التأويل ليس من عنده؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرُّؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقي الملك : { يُوسُفُ أَيُّهَا . . . } .

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

وقوله : { أَيُّهَا الصديق } [يوسف : 46] .

يدل على أنه قد جرَّبه في مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله؛ وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع لِيدُلَّنا على أن الصدق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل .

أما في الأقوال فصدقه واضح؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتي فعله مخالفاً لهذا الكلام؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صِدِّيق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين؛ إما قول وإما فعل؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل؛ وكلاهما عمل؛ فالقول عمل؛ والرؤية بالعين عمل؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول؛ وإما فعل .

والصَّدِّيق هو الذي يصدُق في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه : { كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 3] .

ونعلم أن ساقي الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته في السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له : { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] .

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيين : { وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] .

والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيين . ولذلك يقول له هنا :

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 46] .

أي : أفتِنَا في رُؤيا سبع بقرات سِمَان؛ يأكلهن سبعُ بقرات شديد الهُزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخر يابسات ، لَعلِّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : { أَفْتِنَا } [يوسف : 46] .

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : { لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس } [يوسف : 46] .

هو تحرُّز واحتياط في قضية لا يجزم بها؛ وهو احتياط في واقع قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده؛ ولذلك يُعلمنا الله :

{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً } [الكهف : 2324] .

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يَهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن الله يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله؛ وحين تُقدِم على أيِّ فعل؛ فأيُّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرَة ، لا تملك منها شيئاً؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقي :

{ لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس } [يوسف : 46] .

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

{ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 46] .

وكأن الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه السلام؛ ويعود به إلى الناس؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجَّة فيه؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف؛ فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : { لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس . . . . } [يوسف : 46] .

قد يدفع سائلاً أن يقول : مَنِ الذي كلَّف الساقي بالذَّهاب إلى يوسف؛ أهو الملك أم الحاشية؟

ونقول : لقد نسبها الساقي إلى الكل؛ للاحتياط الأدائي .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { قَالَ تَزْرَعُونَ . . . } .

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47)

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك .
والدَّأْب معناه : المُواظبة؛ فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل .
ويتابع : { فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } [يوسف : 47] .
أي : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجِدٍّ واجتهاد؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنَابله .
والحفظ في السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن ، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن في سنابله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .
وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية؛ إن المقصود هو تخزين القمح في سنابله وعيدانه .
وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح في سنابله فقط؛ لأن العيدان هي طعام الحيوانات .
ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان؛ وعاء يحميها؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدَّرْس »؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصِلاً عن حبوب القمح .
ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهي نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .
ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقي عن « الردة » ، وهؤلاء يتجاهلون أو لا يعرفون الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .
فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .
وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمُّونه « الدقيقة العلامة »؛ الذي إنْ وضعت ملعقة منه في فمك؛ تشعر بالتلَبُّك؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة »؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .
ويمتنُّ الله على عباده بذلك في قوله الحق : { والحب ذُو العصف والريحان } [الرحمن : 12] .
وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طَحْن القمح ، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية؛ يعاني من ارتباك

غذائي يُلجِئه إلى تناول خبز مصنوع من قِشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السِّن »؛ ليعوض في غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } [يوسف : 47] .

وهكذا أخبر يوسف الساقي الذي جاء يطلب منه تأويل رُؤْيا الملك؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التي تلي السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا مِلْء البطون؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

{ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } [يوسف : 47] .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك : { ثُمَّ يَأْتِي مِن . . . } .

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث في مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذي يتطلب هِمَّة لا تفتر .

وقوله سبحانه في وصف السبع « سنوات » بأنها :

{ شِدَادٌ . . } [يوسف : 48] .

يعني : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس؛ فإنْ لم تكُنْ هناك حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم في السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقي حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْري على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط؛ بل نبغي منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغي سَدَّ غائلة الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول : { فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً } [النساء : 4] .

أي : بدون أن يضرك ، ودون أن يُلجِئك هذا الطعام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه : { هَنِيئاً . . . } [النساء : 4] ، أما المقصود بقوله : { مَّرِيئاً } [النساء : 4] .

فهو الطعام الذي يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ } [يوسف : 48] .

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هي التي تأكل؛ بل البشر الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك؛ لأننا نعلم أن أي حدث يحتاج لزمان ولمكان؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثال على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه : { وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير . . } [يوسف : 82] .

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التي كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التي كانت معهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ نجد الحدث منسوباً للزمان؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوي في العام التالي لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

وقوله تعالى :

{ مِّمَّا تُحْصِنُونَ } [يوسف : 48] .

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع؛ ويقال : « أقاموا في داخل الحصن » أي : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء؛ يمتنعون عليهم؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه : { والمحصنات مِنَ النسآء . . . } [النساء : 24] .

أي : المُمْتنعات عن عملية الفجور؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه : { والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا } [الأنبياء : 91] .

أي : التي أحكمتْ صيانة عِفَّتها ، وهي السيدة مريم البتول عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصَن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ . . . } .

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

ونلحظ أن هذا الأمر الذي تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ؛ وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور؛ حيث يعود الخِصْب العادي ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْث »؛ لأننا نقول « أغِثْ فلاناً » أي : أَعِنْ فلاناً : لأنه في حاجة للعون ، والغيث ينزل من السماء لِيُنهِي الجَدْب .

وقوله : { يُغَاثُ الناس . . . } [يوسف : 49] .

أي : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضروري من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : { وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [يوسف : 49] .

أي : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق في آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق عليه السلام وبين ساقي الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا ، وتقديم الساقي طلباً لأن يرسلوه كي يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقي .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن عَلِم الملك بتأويل الرُّؤيا ، فيقول سبحانه : { وَقَالَ الملك . . . } .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)

ومعنى ذلك أن الساقي ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تأويل الرُّؤيا ، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه؛ وعاد الساقي لِيُخرِج يوسف من السجن الذي هو فيه .

لكنه فُوجِيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك : { ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [يوسف : 50] .

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لِمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذي هو فيه؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك؛ فقد يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق المَلِك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

{ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [يوسف : 50] .

ويُخفي هذا القول في طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها

للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العِبْرة التي تخدمنا في واقع الحياة؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مُهِمٌ؛ كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنَّ قائل في وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً » : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه؟

وها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول : « عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أُرْسِل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له أُتِي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر » .

وشاء نبينا صلى الله عليه وسلم أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال لو لبثتُ في السجن ما لبثَ ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ صلى الله عليه وسلم – : { فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . } [يوسف : 50] » .

وهكذا بيَّنَ لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فَيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن ، ثم يعمل على كشف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذ كل موقف بقدْره ويُرتِّب له؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يرى أن الإيمان بالله يقتضي ألاَّ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَاهِاً ، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ؛ فيتقوَّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك؛ بألاَّ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذي تأتيك منه الرِّيبة؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، « فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره

وهو معتكف في العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب أي : تعود إلى حجرتها فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : » على رِسْلكما ، إنما هي صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما « .

وهنا في الموقف الذي نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعي النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن ، وراوَدْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه : { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ . . . } .

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

ونعلم أن المُرَاودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هي النسوة إلى مجلسها؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورد الحق سبحانه : { وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين } [يوسف : 33] .

واستدعاهن الملك ، وسألهن : { مَا خَطْبُكُنَّ } [يوسف : 51] .

والخَطْب : هو الحَدَثْ الجَلَل ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم؛ بل يتكلمون عنه بحديث يصل إلى درجة تهتز لها المدينة؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة : { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } [الذاريات : 31-32] .

أي : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامري : { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري } [طه : 95] .

وقَوْل الملك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ } [يوسف : 51] .

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها؛ واعتبرها خَطْباً؛ مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

{ حَاشَ للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء } [يوسف : 51] .

ولم يذكُرْنَ مسألة مُرَاودتِهِنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند المَلِك .

وقولهن : { حَاشَ للَّهِ . . . } [يوسف : 51] أي : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

{ قَالَتِ امرأت العزيز الآن حَصْحَصَ الحق . . . } [يوسف : 51] .

أي : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حِصَّة الحق من حِصَّة الباطل ، ولا بُدَّ من الاعتراف بما حدث :

{ أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين } [يوسف : 51] .

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف في الآية التالية : { ذلك لِيَعْلَمَ . . } .

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)

قالت ذلك حتى تُعلِنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه في السجن وتنتقم منه؛ لأنه لم يستجِبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلُّنا على أن شِرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي في نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى في خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كي تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : 114] .

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها؛ فالفاضح لتلك السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسيء؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تُذهِب عنهم السيئات؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذي يُلهِبه؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت؛ قالت :

{ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين } [يوسف : 52] .

أي : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول : { وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي . . . } .

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس؛ فهي لم تحضر لتبرىء نفسها :

{ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ . . . } [يوسف : 53] .

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكِّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت : { أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين } [يوسف : 51-52] .

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

{ وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسواء إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي } [يوسف : 53] .

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به؛ فهو كبشر مُجرّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء؛ وفي هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس؛ فهي ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ، وقد تستقبِل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتلبي نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات » .

أي : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي توصله إليها تلك اللذة؛ لأن شيئاً قد تستلِذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه؛ ولا يضع في باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

ويخطيء الإنسان في حساب عمره؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المَوْلَى عَزَّ وجَلَّ له على المعاصي .

وكل مِنَّا مُطَالب بأن يضع في حُسْبانه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته » .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفتَ على قبر؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد » .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : { إِلاَّ مَا رَحِمَ رِبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [يوسف : 53] .

ونعلم أن هناك ما يشفي من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

والحق سبحانه هو القائل : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء : 82] .

فساعةَ تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويُقويَّ قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك . وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً ، وتُطبِّقه في حياتك؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طِبّ علاجيّ وطبّ وقائيّ في آنٍ واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ الملك . . . } .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)

ونلحظ أن الملك قد قال : { ائتوني بِهِ } [يوسف : 54] .

مرتين ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة؛ وسِعَة عِلْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر في صفات هذا الرجل؛ والراحة النفسية التي ملأتْ نفس الملك؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله :

{ ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف : 54] .

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفَّ خفَّة يوسف على نفسه؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ؛ وهو صاحب عِلْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا؛ وقد فعل ذلك وهو سجين ، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذي أعلن الأمر بقوله :

{ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف : 54] .

وذلك ليسُدَّ باب الوِشَاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين » هي المكانة التي لا ينال منها أيُّ أحد .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن الوحي من جبريل عليه السلام قال : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ } [التكوير : 19-20] .

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أَهْلٌ للثقة عند الحاكم؛ وهو الذي سيُنفذ الأمور ، وله صِلَة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمَكَّن من عند الحاكم؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجِّح الحاكمُ من يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكيّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

{ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف : 54] .

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التي سبق أن أوَّلها يوسف : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [يوسف : 47-49] .

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعِلْم .
لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات : { قَالَ اجعلني . . . } .

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .
وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام .
وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية؟ والقاعدة تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .
فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .
وقد تأتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .
ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة؛ وتعقَّدت الأمور؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .
هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة؛ وبعد أن ينتهي الموقف؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير؛ ويعود لقيادة السفينة .
إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .
وفي مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :
الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه؛ لثقته في إنجاح المهمة .
والشجاعة الثانية : إنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .
وبذلك يُظهر وَجْه الحق؛ ويُزيل سيطرة الباطل .
ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :
{ اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف : 55] .

والخزائن يوجد فيها ما يُمكّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد .
وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحِفْظاً وعِلْماً .
وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغبٍ في المَيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة؛ أو يأتي بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .
ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أي : يقول رَبُّ الأسرة الفقيرة : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .
وكان يوسف عليه السلام يُحسِن إدارة الأمر في سنوات الجَدْب ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد في سبعة أمعاء بل يأكل في مِعىً واحد ، كما يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« المؤمن يأكلَ في مِعيٍّ واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » .
وكان التموين في سنوات الجَدْب يقتضي دِقَّة التخطيط ، ولا يحتمل أيَّ إسراف .
وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .
وحين سُئِل : ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته؟
أجاب : كي يأخذ كل إنسان في أقلَّ الحدود التي تكفيه في سنوات الجدب .
ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشتري الخبز المُدعَّم ليُطعِم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشتري في حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألاَّ يُلقِي مما اشترى شيئاً .
وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .
ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر في حياتنا؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن في كبرياء : « إن معدتي لم تَعُدْ تتحمل اللحم » .
وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير؛ لأن لحمه طيِّب ، عكس السمك الكبير الذي يكون لحمه « مِتقِّلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .
وقديماً في بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل في سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفي آخر لقمة في الرغيف ، أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .
وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبتَها ... وإذَا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وكذلك مَكَّنَّا . . . } .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة؛ عادلة؛ فلما جاء الجدب؛ لم يَأتِهَا وحدها؛ بل عَمَّ البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أُنَاساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

{ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ } [يوسف : 56] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان؛ ولا يَظُنَّن ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في بعض البلاد؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما؛ وقد يزوره؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع؛ ويصلحون المرافق؛ وقد يُحضِرون أُصَص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ عَلِموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما؟ لا بُدَّ أنهم سَيُوالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

{ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . } [يوسف : 56] .

يعني : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا البلد؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبُّوء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ } [يوسف : 56] .

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش في مكان مُريح ستتحول المنطقة التي يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذي يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن في الأرض له مسكن مجاور له؛ وسيجد العناية من قِبَل الجهاز الإداري حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين } [يوسف : 56] .

والمُحْسِن هو الذي يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً في أكثر من مكان؛ فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التي له فيها بيوت؛ بارتفاع مستوى الخدمة في المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازي المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولَّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه : { وَلأَجْرُ الآخرة . . } .

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

ويوضح هنا سبحانه أنه لا يجزي المحسنين في الدنيا فقط؛ ولكن يجازيهم بخير أبقى في الآخرة .

وكلمة « خير » تستعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شيء آخر؛ أي : أنهما شركاء في الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعِنْ بالله ولا تعجز ، وإنْ أصابك شيء فلا تَقُلْ : لو أنِّي فعلتُ كذا وكذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

والاستعمال الثاني لكلمة « خير » : هو خير مقابله شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] ، والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة؛ لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك .

أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشري الفساد في الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاءَ نوعين : جزاء في الدنيا لِمَنْ يُحسِن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً؛ وجزاءً في الآخر يختصُّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ } [يوسف : 57] .

أي : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ، على عكس خير الدنيا الذي قد تفوتُه أو يفوتُك ، بحُكْم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرك فيها؛ ولكن الآخرة لها الدَّيْمومة التي شاءها الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف : { وَجَآءَ إِخْوَةُ . . . } .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58)

وقد عرفهم يوسف؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد ألقَوْهُ في الجُبِّ صغيراً؛ ومرَّتْ رحلته في الحياة بعد أن عثر عليه بعض السيَّارة؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتمر به الأحداث المتتابعة بما فيها من نُضْج جسدي وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو في منصبه العالي ، بما يفرضه عليه من وجاهة في الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، وقد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمر عليه عِقْد من الزمان؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كانَ كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامح الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج .

والذي دفعهم إلى المجيء هو القحط الذي لم يُؤثِّر على مصر وحدها؛ بل أثَّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذي اختزن الأقوات تحسُّباً لذلك القحط؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة والطعام ، ولم يتخيَّلوا بأي حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذي ألقوْه في الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا جَهَّزَهُم . . . . } .

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59)

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المَيْرة؛ وأمر بتجهيزها لهم .

وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب في انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم من بعد ذلك أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ، وقال لهم :

{ أَلاَ تَرَوْنَ أني أُوفِي الكيل وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين } [يوسف : 59] .

وفي هذا تذكير لهم بأنه يُوفِي الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة في المَيْرة؛ بدَعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضِروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً؛ لأنه لا يحب أن يعطي أحداً دون دليل واضح؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لِمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فَوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم في الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام؛ لذلك تقول الآية : { وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ } [يوسف : 65] .

وقوله :

{ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين } [يوسف : 59] .

يعني : أنه يرحب بالضيوف؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذي نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف في إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » في ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلِي ، وحقيقة المعنى هو : مُنزِل مِنَ الذي ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة : { نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ } [فصلت : 32] .

أي : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذي يعدّ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخواني الذين بُهروا بفندق رَاقٍ في سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقِياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين : تظهر نَفسه فيه؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمنا يفرح ويقول :

هذه النعمة التي أراها تزيد من عِشْقي في الجنة؛ لأن تلك النعمة التي أراها قد صنعها بشر لبشر؛ فماذا عن صُنْع الله للجنة؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيماني ، بأن الذي أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حِقْد إلى النعمة عند الغير؛ فهو يحرم نفسه من صَبابة النعمة عند الغير؛ لأن النعمة لها صَبابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان؛ فثِقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك؛ كرهتْ النعمة أن تأتي إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذي عند غيرك؛ عليك أن تحب النعمة التي عند هذا الغير؛ لتسعى النعمة إليك؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها؛ لأنها ستأتي إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين } [يوسف : 59] .

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف : { فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي . . . } .

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60)

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

{ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي . . } [يوسف : 60] .

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادُ قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

{ وَلاَ تَقْرَبُونِ } [يوسف : 60] .

أي : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك : { اأبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 63] .

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا : { قَالُواْ سَنُرَاوِدُ . . . . } .

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61)

وقولهم :

{ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ . . . } [يوسف : 61] .

يعني : أن الأمر ليس سهلاً؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُرَاودة تعني أخْذ وردّ ، وتحتاج إلى احتيال؛ وسبق المعنى في قوله الحق سبحانه : { وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ . . . } [يوسف : 23] .

وأكدوا قولهم :

{ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } [يوسف : 61] .

أي : أنهم سيبذلون كُلَّ جهودهم؛ كي يقبل والدهم إرسالَ أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا

مطلبٌ صَعْب المَنال ، عسير التحقيق .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ . . . } .

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

أي : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التي أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدي يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُسْتتر في الرِّحال التي أَتَوْا عليها ، وفي هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَلَمَّا رَجَعُوا . . . } .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63)

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المَيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .
وحَكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم « بنيامين » معهم؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .
وهم في قولهم هذا يحاولون أن يُبعِدوا رِيبةَ الأب عَمَّا حدث ليوسف من قبل .
وهنا يأتي الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام : { قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ . . . . } .

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

وهنا يُذكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقدِّموا من قبل ما يُطمئِنه على ذلك؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .
وأضاف : { فالله خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين } [يوسف : 64] .
وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .
وبدأ أبناء يعقوب في فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .
ويقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ . . . . } .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معهم في رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لِمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومَيْرة قد رُدَّتْ إليهم؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك؛ فهم قد حصلوا على المَيْرة التي يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بُدَّ أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا : { قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ . . . } .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التي بَدَتْ من قبل في قوله : { فالله خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين } [يوسف : 64] .

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم؛ ما لم يُحِطْ بهم أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصرهم أعداء يُضيِّعونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم؛ وهذا من احتياط النبوة؛ لذلك قال :

{ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ . . . } [يوسف : 66] .

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

{ الله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [يوسف : 66] .

أي : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم .

ويُوصِي يعقوب أولاده الأسباط : { وَقَالَ يابني . . . . } .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام في المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن عَلِم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعةَ ترى إنساناً له شأن؛ فترقب أن يُعادى ، لذلك توجَّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب؛ تُفتح وتقفل في مواعيد محددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علَّمنا سبحانه أن نستعيد به سبحانه من الحسد؛ لأنه سبحانه قد عَلِم أزلاً أن الحسد أمر فوق طاقة دَفْع البشر له ، وهو القائل : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } [الفلق : 1-5] .

وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيذ بواحد مُسَاوٍ لك؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدْرَك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر الارتقاءات المادية قد توصَّل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشعاعات؛ والتي قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة .

والحق سبحانه هو القائل : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ } [المدثر : 31] .

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص؟

أقول : إنه سبحانه يعطي من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها في غير موضعها ، وكلُّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذي يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلْتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } [الفلق : 1-5] .

وأن تقول كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامَّة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كان أبوكما إبراهيم يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام » .

كما « أنه صلى الله عليه وسلم : » كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى «

، لأن معنى حَزْب أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لواحد من اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يأوي إلى المُسبِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذتَ أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضطر؛ لا ذهاب الكسول

عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السواء } [النمل : 62] .

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ ربه إلا بعد أن أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد؛ بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسلم لمشيئة الله ، فقال :

{ وَمَآ أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ الله مِن شَيْءٍ . . } [يوسف : 67] .

أي : لست أُغْني عنكم بحذري هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

{ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون } [يوسف : 67] .

فكل الخَلْق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذَ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه : { وَلَمَّا دَخَلُواْ . . . } .

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)

أي : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شيء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أي شيء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

{ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا . . . } [يوسف : 68] ويعقوب يعلم أن أيَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

{ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ . . . } [يوسف : 68] .

أي : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 68] .

أي : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعِب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَلَمَّا دَخَلُواْ . . . } .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)

أي : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم؛ وأكرم وفادتهم؛ بعد أن وَفَّوْا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف؛ فهما من أم واحدة؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

{ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ } [يوسف : 69] .

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

{ قَالَ إِنِي أَنَآ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [يوسف : 69] .

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا لفترة ببنيامين ، ولم يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّي عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ . . . } .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70)

أي : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جَهَّزهم في المرَّة السابقة؛ وأراد أن يُبقي أخاه معه في مصر؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبقِيه معه؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألا يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقي بها أخاه معه ، وقد جَنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التي يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها في رَحْل أخيه .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقات متعددة من مادة « سقى » أي : « السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر } [التوبة : 19] .

فكان معنى السقاية أيضاً هو المكان الذي يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التي يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذي كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ،

وهذا دليلٌ على نَفَاسة المكِيل .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التي يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب؛ وأيضاً يُكَال بها؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

{ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ } [يوسف : 70] .

أي : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا « السقاية » في رَحْل أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله . وبعد أن ركب إخوة يوسف حِمالهم استعداداً للعودة إلى الشام؛ وقعت المفاجأة لهم؛ والتي يقول عنها الحق سبحانه :

{ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } [يوسف : 70] .

أي : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من « بنيامين » ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِي بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزِيد من حُزْن يعقوب؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها؟

أقول : انظروا إلى دِقَّة القرآن ، ولنُحْسِنَ الفهم عنه؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه؛ فلَن يُؤثِّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه بحكاية السرقة؛ واستبقاء بنيامين في مصر قال : { ياأسفى عَلَى يُوسُفَ } [يوسف : 84] .

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم في نظر يوسف قد سَرَقوه من أبيه ، وألقوْه في الجُبِّ .

وهنا يأتي الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام : { قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ . . } .

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71)

أي : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائِلين : ماذا فقدتم؟ ولماذا تتهموننا؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم : { قَالُواْ نَفْقِدُ . . . } .

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

أي : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية الملك؛ ويُقَال لها « صواع » ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حِمْل بعير؛ فلعل صُواع الملك قد خُبئت في حِمْل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهي حِمْل بعير من المَيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام : { قَالُواْ تالله . . . } .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)

وقولهم { تالله } هو قسم ، وعادةً تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أي : أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتي الحق سبحانه بما جاء على ألسنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُوَاع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : { قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ . . . . } .

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74)

وهذا سؤال من مُسَاعدي يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة في شريعتهم لمن يسرق؟ وماذا نفعل بمن نجد في رَحْله صُواع الملك؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة في شريعة آل يعقوب أن يُسترقَّ أو يظل في خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التي أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ في ثياب يوسف شيئاً عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمَّته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقي أخاه معه؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِد الحق سبحانه قولهم : { قَالُواْ جَزَآؤُهُ . . . } .

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكَّدُوه بقولهم :

{ كذلك نَجْزِي الظالمين } [يوسف : 75] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مَأْربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه : { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ . . . } .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم؛ وهم عشرة؛ قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب؛ فيستبقي شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

{ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ } [يوسف : 76] .

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

{ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } [يوسف : 76] .

أي : ما كان يوسف ليأخذ أخاه في دين الملك الذي يحكم مصر؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

{ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزِل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما في المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أيَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأي منه؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

{ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

و (ذي علم) أي : صاحب علم . وكلاهما مُنْفصل ، أي : هناك « صاحب » ، وهناك « علم

» ، والصاحب يوجد أولاً؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه : { عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

أي : أن العلم ذاتيّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف أخوة يوسف؟

بطبيعة الحال لابد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بُدَّ أن ينصرف إلى الأخ الذي وُجدت السقاية في رَحْله؛ وأخذوا يُوبّخونه؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف في قولهم : { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } [يوسف : 8] .

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هي « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتلَّطفوا به .

وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة في رِحَالي هو مَنْ جعل البضاعة في رِحَالكم .

وهنا قال أحد الأخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم ، فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويورد الحق سبحانه هنا قولهم : { قالوا إِن يَسْرِقْ . . . } .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

{ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . . } [يوسف : 77] .

يُسمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية؛ أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً؛ ثم يحدث الحدث الثاني ، وهو هنا قولهم :

{ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ } [يوسف : 77] . كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً : { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } [آل عمران : 184] .

فكأن الله يوضح للرسول صلى الله عليه وسلم : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء؛ فلا تحزن ولا تبتئس؛ فهذا التكذيب ظاهرة عَانَى منها كل الرسل السابقين لك؛ لأنهم

يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذي حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . . } [يوسف : 77] .

أي : لا تعجب يا عزيز مصر؛ لأن هذه خصلة في أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل!!

وكل حدث يحدث للمَلَكات المستقيمة؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك المَلَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا صلى الله عليه وسلم : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه الغضب؛ وإلا فليضطجع » .

كي يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، ولِيُسرِّب جزءاً من الطاقة التي تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

{ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ . . . } [يوسف : 77] .

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التي اتهمته بالباطل أنه سرق؛ لتحتفظ به في حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

{ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . . } [يوسف : 77] .

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكن قال رأيه فيهم لنفسه :

{ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ } [يوسف : 77] .

لأنكم أنتم مَنْ أخذتموني طفلاً لألعب؛ ثم ألقيتموني في الجب؛ وتركتم أبي بلا موانسة .

. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا في نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصِلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتمع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : { والله أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ } [يوسف : 77] .

أي : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ } [النحل : 116] .

أي : أن ما تقولونه يُوحي من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصِف » وكلمة « تصفون » غلب في استعمالهما للكلام الذي يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتي الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك : { قَالُواْ ياأيها . . . } .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

وهكذا دخلوا مع يوسف في نقاش ، وبدأوا في الاستعطاف؛ بقولهم :

{ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً . . . } [يوسف : 78] .

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر في السنِّ تكون من « كَبِرَ يَكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَرَ في المقام تقول : « كَبُرَ يَكبُر » .

والحق سبحانه يقول : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً } [الكهف : 5] .

والكِبَر واحد من معاني العظمة ، أما الكِبَرُ في السِّنّ فهو مختلف؛ وهنا قالوا :

{ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً . . . } [يوسف : 78] .

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أي : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً في قومه؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

{ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 78] .

أي : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفعل ذلك؛ لا يضِنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك : { قَالَ مَعَاذَ الله . . . } .

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79)

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً مِمَّنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذا » مُنوَّنة؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أي : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه : { وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ } [الواقعة : 84] .

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحِقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين؛ لأنه هو مَنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك؛ ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول : { فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ . . } .

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80)

ويقال : « يئس » أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات؛ ولا فائدة؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلِحُّون على اليأس أن يأتيهم؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : { خَلَصُواْ نَجِيّاً . . } [يوسف : 80] .

أي : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاونِين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة؛ والمناجاة مَسرَّة؛ والمَسرَّة لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن : { خَلَصُواْ . . . } [يوسف : 80] هي جمع ، و : { نَجِيّاً } [يوسف : 80] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون مَلَكةً عربية : كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملَكَة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه : { وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم : 4] .

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين } [الشعراء : 75-77] .

أي : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التي يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء في أمر قضية ما؛ فالقاضي لا يُصدِر الحكم وحده؛ بل يُصِدره بعد التشاور مع المُستَشارين؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : { نَجِيّاً } [يوسف : 80] في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأي الأول للأخ الأكبر ، الذي عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِي الرأي الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ الله وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي أَوْ يَحْكُمَ الله لِي وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين } [يوسف : 80] .

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذي احتجزه عزيز مصر؛ قال لهم رأيه الذي حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذِنَ له بذلك؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا في نفس البلد .

وهذا القول في ظاهره دفاع عن النفس؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين؛ ولذلك ترك أخوته يتحملَّون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب؛ لأنه فقد في الرحلة الأولى يوسف ، وفي الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذي يرأس الرحلة .

وفي هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاولَة بين الأخوة في تلك المُنَاجاة

، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .
وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا؟ جاء قوله الذي أوردته الآية التالية : { ارجعوا إلى أَبِيكُمْ . . . } .

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81)

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فِتيان العزيز صُوَاع الملك في رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له؟ وهل هي حِيلة ومكيدة؟
ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك في رَحْله هو السبب في كل ذلك .
ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده؛ لأن هناك سوابقَ لهم؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم إنْ كَذَّبهم ما جاء به الحق على ألسنتهم : { وَسْئَلِ القرية . . . } .

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)

أي : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك في أقوالنا؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذي كنا فيه؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التي كانت معنا شهدتْ الواقعة؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتَمَّ تفتيش العِير علناً .
فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العِير التي كانت تسير معنا في الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التي جئنا منها .
ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام أخوة يوسف لأبيهم يعقوب :
{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . } [يوسف : 82] .
ونحن نعلم أن كل حَدَثٍ من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .
وفي بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوي في الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :
{ وَسْئَلِ القرية } [يوسف : 82] .
والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد

يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبيٌّ ويوحي لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .
وكذلك قولهم :
{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير } [يوسف : 82] .
ونعلم أن العير هي المَطايا؛ سواء أكانت نِياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التي تحمل البضائع .
وحين يُقَال :
{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير . . . } [يوسف : 82] .
أي : أن العير كان لها في الأمر شيء فوق المُلاَبسات كلها .
ومثال هذا ما كان في موقعة بدر؛ فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلقَى العير القادمة من الشام وهي مُحمَّلة بالبضائع؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التي كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .
ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِموا من مكة؛ وصفهم بالنفير ، أي : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .
إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .
وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على ألسنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين؛ وكذلك تَخَلُّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .
يقول الحق سبحانه : { وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . . } [يوسف : 82] .
ويجوز أن تفتيشهم قد تَمَّ في مكان بعيد قليلاً عن العُمْران؛ وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التي عثروا فيها على صواع الملك .
وسُمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :
{ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . . } [يوسف : 82] .
أي : اسأل أهل الموقع الذي حدث فيه التفتيش .

وكذلك قولهم : { والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [يوسف : 82] .
أي : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .
وكرر قولهم :
{ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [يوسف : 82] .
لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم

هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الاسمية :

{ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [يوسف : 82] .

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شَكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتي الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب : { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ . . . } .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83)

الأمور التي تخالف الضمير؛ ويُستحى منها؛ ويُخشى مَغبَّتها؛ هي أمور تستعصي على النفس؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

{ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . } [يوسف : 83] .

أي : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب : { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحَدِّ ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهِبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

{ عَسَى الله أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . . } [يوسف : 83] .

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحي بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

{ عَسَى الله أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . } [يوسف : 83] .

والغائب عنه هما يوسف وأخوه؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الأخوة الذي رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون؛ لذلك قال :

{ عَسَى الله أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً . . } [يوسف : 83] .

ولم يَقُلْ : يأتيني بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم } [يوسف : 83] .

فالله سبحانه يعلم أين هم؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وتولى عَنْهُمْ . . . } .

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْناه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصيبتاه »؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال : { ياأسفى عَلَى يُوسُفَ . . . } [يوسف : 84] .

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به؛ فكان حُزْنه على يوسف طاقة من الهَمّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، وهي افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

{ وابيضت عَيْنَاهُ } [يوسف : 84] .

أي : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود في العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذي لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها . « ونجد رسولنا صلى الله عليه وسلم يبكي؛ وتذرف عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أتبكي؟ أو لم تكن نَهيْتَ عن البكاء؟ قال : » لا ، ولكن نَهيتُ عن صوتين أحْمقيْنِ فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان « .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون « .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلموداً أو يكون صخراً لا ينفعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة

يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعلِيها .

فسبحانه هو الذي خلق العاطفة ، والغريزة في الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة في الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثل الذي أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك؛ ولا تستخدم هذه الغريزة في التجسُّس على الناس .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة على سبيل المثال هي التي تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِي غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

{ فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف : 84] .

أي : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة » كظيم « مأخوذة من » كظمت القربة « أي : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { قَالُواْ تَاللهِ . . . } .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85)

ولقائل أن يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم؟

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمني يوسف . فعتب عليه الله في هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قال : غفرتُها لك .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

{ تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين } [يوسف : 85] .

أي : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم

هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .
وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه : { قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ . . . } .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هي المصيبة التي لا قُدرة لأحد على كتمانها؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوع يتودد إلى الأقوى ، ويتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتَلى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد » .
والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ } [الأنعام : 43] .
فساعة يأتي البأْسُ ونتضرع إلى الله؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر؛ وأعادنا إلى الله الذي لن يزيل البأس إلا هو .
أما الذي يتمرد ويستعلي على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بِمَنْ يدعوه .
وتساءَل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا صلى الله عليه وسلم : { الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة : 156] .
ونقول : إن هذا من النعم التي اختصَّ بها الحق سبحانه أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وحين دخل بعضهم على عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه وأرضاه وكان يعاني من وَعْكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع؟ قال : أنا لا أشجع على الله .
وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حُزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضُّرِّ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .
فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرُّؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .
ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول : { يابنى اذهبوا . . . } .

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)

ونلحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والأخ الأكبر الذي أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتي فرج من الله .

وهنا في هذه الآية جاء ذِكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذِكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذي عانى من مناهضة بقية الأخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود في الوقت الذي يريد .

وقول يعقوب :

{ اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . } [يوسف : 87] .

نجد فيه كلمة (تحسسوا) ، وهي من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هي منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هي قنواتُ المعرفة ، وهي غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر في مراتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

{ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . } [يوسف : 87] .

يعني أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلِقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفي عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلاني » .

وتابع يعقوب القول :

{ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ الله إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون } [يوسف : 87] .

أي : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبُّ » .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى » .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك في أيِّ أمر يُعضِلكم ، ولن ينتهي الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاّ لِمَا أعضلَه .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح » ، و « الرَّوْح » هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان في يوم قَيْظ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها .

والحق سبحانه يقول : { فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ } [الواقعة : 89] .

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس في بستان ، وتهبُّ نسمة هواء؛ فيتعطر الجو بما في البستان من زهور .
والرُّوح هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك .

ويأتي هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :
{ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون } [يوسف : 87] .
لأن الذي ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .
وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .
وسبحانه يقول : { وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً } [الطلاق : 2-3] .
وهذه مسألة تحدث لمن يتقي الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقي الله ، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .
وهَبْ أنك سائر في الطريق ، وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك؛ هل تحزن؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .
ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب؛ سيجد الحل والفرج من أيِّ كرب مِمَّا هو فوق الأسباب .
ولماذا ييأس الإنسان؟
إن المُلحِد هو الذي ييأس؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده؛ إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤمَن به .
أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطي بالأسباب ، وبما فوق الأسباب؛ وهو حين يمنع؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .
وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى؛ وهي لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام في مقرِّه بمصر؛ ونقرأ قوله الحق : { فَلَمَّا دَخَلُواْ . . . } .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير في « عليه » لا بُدَّ أن يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

{ ياأيها العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر } [يوسف : 88] .

أي : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم؛ بعد تفخيمهم له؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

{ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين } [يوسف : 88] .

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كَلَوْن من المَكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز؛ أي : المالك المُتمكِّن؛ ويعني هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر في متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضاعة مزجاة ، أي : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سِلَع .

وكلمة : { مُّزْجَاةٍ } [يوسف : 88] .

أي : مدفوعة من الذي يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } [النور : 43] .

وكلمة « يزجي » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

{ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ } [يوسف : 88] .

ولكي تعرف المعنى بإحساسك؛ جَرِّب هذا الأمر في نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أيَّ شيء تشتريه؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشتري منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التي تدفعها لي ، واستبدلها لي بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

{ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ } [يوسف : 88] .

على أنها بِضَاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذي أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التي سوف يأخذونها ، مثل

الأثمان السابقة التي تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

{ فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين } [يوسف : 88] .

أي : أنهم يرجونه أن يُوفِّي لهم الكيل ولا ينقصه؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفِية في الكَيْل صدقة .

وبذلك رَدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى .

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التي قالوها؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه ، وهي ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رأوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله : { قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ . . . } .